هـاينريش المـصـري

هذه الترجمة الكاملة لكتاب

Markus Werner

Der ägyptische Heinrich

صدر العمل الأصلي عن دار نشر
Residenz Verlag, Austria

ماركوس فيرنر

هاينريش المصري

ترجمة / **إيمان نافع - خالد طوبار**
الغلاف / **هانيبال – هيبو**

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٣٤١٣
ISBN: 978 – 977 – 6299 –28-3

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2010

"Publication of this work was supported by ProHelvtia"

المؤسسة الثقافية السويسرية
prohelvetia

رواية من سويسرا

رواية من سويسرا

مارکوس فيرنر

هينريش المصرى

ترجمة إيمان نافع

خالد طوبار

وكالة سفنكس

Sphinx Agency

وكالة سفنكس

كلمة شكر

شكر لكل من ساهم في إخراج هذا العمل ومنهم

د. سيد الرحماني، أ/ إيمان نافع، أ/ مينا عبد المسيح

الفصل الأول

بالطبع سمعت عنه الكثير وقرأت عنه الكثير . . وما أعرفه عن شكله وحجمه وأصله يجعلني أحلق في فضاء الخيال المثير، أتوق شوقاً للمثول أمام هيبته وهوله !

حين رأيتني أقف أمامه وتحقق ما كان خيالاً اصطكت ركبتي وأدركت ضآلتي التي لم أتحقق منها من قبل وأنا أنظر لحجمي قياسا بهول حجمه، بل خجلت من خيالي المحسوس أمام واقع مبهر ملموس فاق قيود العقل وشطحاته !

أدركت أنني قزم واهن بل مجرد دودة يتغشاها الخوف وأنا أطوف حوله وهو شامخ يطاول السماء وينازع صفحاتها الزرقاء، ويطوف معي أقزام مثلي ممتطين ظهور الخيل والجمال . . كانت جولة رائعة !

وفجأة أصبحت وحدي بعد أن حصلت على تذكرة للدخول في باطنه الخفي . . كان علىّ أن أسير منحنياً عبر ممر صاعد

لأعلى، وسط ظلام دامس ونقص في الهواء يزداد كلما توغلت، حتى أنى فكرت في العودة، إلا أنى عند نهاية الممر تمكنت أخيراً من الوقوف بكامل قامتي والحصول على شهقة من الهواء.

ظهر بعد ذلك السرداب المتصاعد، وقد بدا وكأنه بلا نهاية، كافحت في الصعود عالياً، وبجديّة فكرت مرة أخرى في العودة!، فبجانب معاناتي كان خيالي يصور لي أن تلك الملايين من الأحجار وآلاف الأطنان من الأثقال التي أجتاز أعماقها وقد رصتها أيادي بشرية منذ آلاف السنين، قد تسقط في أي وقت، بل لوهلة عابرة فزعت من أن سقوطها سيحدث الآن بالتحديد! . . ولا أدرى كيف خرجت من هذا الحال، فقد انتهى السرداب أخيراً ولا زلت على قيد الحياة!

انتهى السرداب بدهليز حجري بدا وكأنه منور لبيت امتدت نهايته إلى مدخل صغير، قادني إلى الغرفة الملكية، وهى غرفة الدفن التي بدت مثل صالة صغيرة . . كانت فارغة من كل شيء إلا من التابوت الخاوي من مومياء الملك خوفو التي لم يتم العثور عليها.

لم أرغب في البقاء لمدة طويلة داخل المكان، فرائحة البول الرهيبة في المكان تلح علىّ بإصرار للمغادرة، وقبل الشروع في الانسحاب دخل زوجان أسيويان وقالا في نفس واحد: " good morning" . . ألقيت نظرة سريعة على محتوى التابوت فلم أر غير

معلبات فارغة وبقايا قطع من اللبان الممضوغ. . انسحبت بهدوء خارجاً إلى النور.

كان الوقت متأخرا أكثر مما ظننت فلم تتبق أي مساحة زمنية لمشاهدة الهرمين الآخرين وأبا الهول. . وبعد أن أعطتني السفيرة الفرصة للقائها، فلا ينبغي أن أتأخر عليها أو أقابلها بملابس ممتلئة بالعرق والأتربة، لم أكن في حاجة إلى تحفيز سائق التاكسي للإسراع فالجميع هنا يقودون سيارتهم بسرعة وجنون قاتل! . . المهم أنه كان لدي وقت للحصول على دوش سريع واستبدال ملابسي، وحتى لتناول أو شرب شيئاً سريعاً، ولكنني ظننت أن ميعادي مع السفيرة الواحدة ظهراً وأنه لابد أن يكون هناك وجبة خفيفة أو مشروب تقدمه السفارة.

لم تبعد فيلا السفارة عن الفندق إلا ببضع دقائق قليلة مشياً على الأقدام، وبالتالي كان من السهل الوصول إليها رغم موقعها المتواري عن الأنظار، حيث كانت الفيلا الرسمية الناصعة البياض والتي تشبه الأبنية ذات الطرز المعاصر للأزمنة الاستعمارية ،وكانت محاطة بأبنية شاهقة، خصوصاً هذا المبنى الشامخ الذي يقع بجانبها مباشرة "مبنى بنك الاستثمار العربي" والذي طحنها تحت أقدامه، وزاد من وطء الأمر عليها حركة السيارات المتزاحمة في الشارع ومساحة الحشائش الخضراء المحيطة بها والتي جعلتها تبدو وكأنها

جزيرة معزولة ذات طابع أثرى خاص وشبة ضائعة وسط كل هذا . . وبدا لي ما هو أغرب من ذلك، رفرفة العلم السويسري على العمود الخشبي الأزرق المزروع في أرض الحاضر.

لاحظ حارس السفارة المصري الجالس في الكابينة الزجاجية بين الباب الحديدي الداخلي والخارجي رغبتي في الدخول، لكنه تحدث بعض الوقت مع أحد زملائه قبل أن يضغط على زر فتح الباب الخارجي الذي انغلق ثانياً بسرعة وقوة بعد مروري إلى الداخل. . شعرت أنى محبوس ويجب أن أرد على كل الأسئلة وأن أزيح جواز السفر عبر فتحة صغيرة، فأخذه الحارس وتفحصه جيداً ثم تكلم في التليفون داخل السفارة وضغط على زر آخر لينفتح الباب الثاني ذو القطبان . . فأهرع في الحال إلى الفناء الأمامي، فقد تأخرت بسبب حركة الانتظار عشر دقائق كاملة، وأسرعت بصعود درجتين من السلالم المؤدية لباب الدخول الموارب. . فتحته مترددا فوجدت نفسي في صالون واسع. . على اليمين واليسار كان هناك غرفتي مكتب أمامهما حاجز زجاجي، اتجهت ناحية اليمين بعد أن رأيت امرأة شابة جالسة هناك، قامت على الفور وحيتني باسمي وأخبرتني بأن السفيرة ستكون مشغولة قليلا وطلبت مني الجلوس قليلاً في ركن بمقدمة الغرفة بعد أن أشارت ناحية كراس وطاولة . . شرعت بالجلوس ولكنني نهضت ثانية عند اكتشافي لافتة الإعلانات

التي قرأتها بسرعة، كانت موجهة إلى أعضاء الجالية السويسرية ولم يكن لها صفة رسمية ولكنها أشارات إلى اجتماعات ونشاطات منظمة بشكل فردي وخاص على واحد من تلك الأوراق المعلقة. . كان الميعاد قديماً بشكل ملحوظ وقد عرض الإعلان دعوة لتسجيل رجال بأجسام مستقيمة وحبذا لو كانوا من السويسريين ولديهم حماس اللعب وروح الفريق الجماعي وذلك لعمل فريق كرة قدم سويسري يلعب في القاهرة ضد الفريق الإيطالي والهولندي، وجاء ذلك على ضوء فوز الفريق القومي السويسري لكرة القدم في أوروبا في الآونة الأخيرة . . لم أكمل القراءة وجلست في مكاني وفكرت في جدي الأكبر الذي جئت إلى هنا بسببه، وسعادته اللانهائية لأنه عاش في وقت كان ممتلئا بالأوبئة ولكن الألعاب الرياضة لم تلوثه!

بعد مرور ربع ساعة من الزمن آن أوان دخولي إلى السفيرة ووجهتني السكرتيرة عبر سلالم رخامية إلى طابق أعلى، طرقت على الباب الموارب وانتظرت ردها بالإيجاب بعد أن أعلنت عن وجودي. . لم تستقبلني السفيرة بحرارة ولكن بأدب، وكانت كما توقعت قد تجاوزت الخمسين من عمرها، شديدة الاهتمام بمظهرها الذي أعطى انطباعا باردا إلى حدٍ ما . . كان هناك كرسيين وثيرين لونهما أسود فجلست على واحد منهما ونظرت إلى الطاولة الزجاجية الموجودة بين الكرسيين، كان عليها ملف شفاف به

الخطاب الذي أرسلته لطلب مساعدة السفيرة وشرحي للظروف الكاملة التي نمت إلى معرفتي وما كنت أنوى أن أفعله.. سألتني السفيرة إن كنتُ قد شاهدت بعض معالم القاهرة .. فقلت لها إنني فعلت ذلك وأن القاهرة تركت عندي انطباعات مؤثرة وخصوصا الأهرامات، تلك البنايات التي صمدت أمام مسار الزمان الذي يحطم الجميع .. أزعجني استرسالي الحميمى في الحديث مع السفيرة التي تنحنحت وسألتني على الفور:

– إذن أنت تبحث هنا عن أثار لحياة جدك؟

قلت لها:

– نعم جدي الأكبر .

ألقت نظرة سريعة على خطابي وقالت:

– صحيح! .. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد .

أكدت على صحة كلامها موضحاً أن هذا الظرف الزمني بالتحديد هو السبب في صعوبة البحث عن مهمتي.. نظرت إلى كم ملفات الأوراق المتراصة فوق بعضها والورقة أمامها على المكتب.. لماذا تأخرت السفيرة في إعداد ملف جدي؟ .. يبدو أنها كانت تشعر بما يدور بداخلي ورأت أنه قد آن أوان إنهاء لقاءنا فشرعت بالتمهيد لذلك عن طريق إخباري أنها تحب قصص العائلات إلا في حالة مثل ملف عائلتي.. فالأمر يدخل في اختصاص القنصل وليس

في اختصاصها وأنه ربما قام بدراسة الحالة بالفعل، كما أنه يجلس الآن في انتظاري لتقديم العون في هذا الشأن، وبهذا عرفت بعد ثمان دقائق أنه قد آن موعد مغادرتي وأنه قد تم إنهاء استقبالي.

لم يستقبلني القنصل بحرارة ولكن بلطف، . . رأيت نسخة من الخطاب الذي أرسلته للسفيرة موضوعاً أمامه داخل ملف شفاف فوق مكتبه. . كان واضحاً أن القنصل على استعداد تام للمساعدة والإجابة بدقة على أسئلتي وإخباري بكل شيء عن جدي الأكبر مستعينا بخبرة السفارة وكل وسائلها المتاحة للوصول إلى ذلك. . هذه الوسائل والخبرة التي لم تصل بنا إلى شي جديد، وربما الشيء الوحيد الذي ذكره القنصل هو كتاب بعنوان CENT AVS DE VIE SUISSE AU CAIRE صدر في الإسكندرية في الأربعينيات من القرن الماضي وجاء فيه اسم جدي:

Arrive en Egypte aux environs de 1850, apres de solides etudes, Henri Bluntschli de Zuruch fut charge par le Gouvernement Egyptien de la direction des Salines gouvernementales- Henri Bluntschli mourut au Caire en 1901.Il aviat quatre fuls en deux filles.

تلك المعلومات الموجودة بالكتاب كانت زهيدة ولم تقدم شيئاً جديداً، فقد كنت أعرفها تماما كمعرفتي لحقيقة أن هاينريش قضى خمس سنوات من عمره ذي الخمسين عاماً على ضفاف النيل يعمل

مديراً لمصانع الملح المصرية . . لكنى أظهرت نوعاً من الفرح بهذه المعلومات وساعدني في إظهار ذلك دخول عامل البوفيه ذو البشرة السمراء حاملاً صنية عليها كوب من عصير البرتقال . . أخبرني القنصل بعد أن تناول رشفة من العصير ثم وضع الكوب مرة أخرى فوق الصنية، عن احتمال عيش بعض أحفاد جدي هنا في مصر وفقاً لنتائج بحثه، وقال أن النتائج سلبية، وإن كان ذلك لا ينفى وجود لبعض أقارب جدي الأكبر يعيشون هنا أو في أي مكان في العالم لاسيما وأن جدي قد أنجب ستة أطفال . . قاطعته قائلاً:

– نعم ولكن جدي له أبن وحيد من زواجه الأول، وأصبح عدد أحفاده من هذا الابن أربعة وعشرون فردا ومنهم أنا شخصياً . . إلا أنه لا يوجد فرد من هذه الأحفاد يحمل اسم "بلونتشيلي" نظراً لأن الابن لم ينجب غير ابنتين، واحدة منهما هي جدتي، وبالتالي لم تحمل الابنتان اسم العائلة، ولكن من المحتمل أن يكون هناك أبناء قد أنجبهم جدي من زواجه في مصر وأنجب الأبناء بدورهم أبناء آخرين يحملون اسم "بلونتشلي" ويعيشون هنا في مصر وهذا هو سبب سفري وقدومي إلى مصر أملاً في العثور على أحد منهم.

قال القنصل قبل أن يطالع في ساعته، أن نتائج بحثه المتعلقة بهذا الأمر كانت سلبية كما ذكر سالفاً وسألني ما إن كان لدى رغبة أخرى يمكنه أن يساعدني بها . . سألته إن كان بوسعي استعارة

الكتب الثلاثة التي عرضها عليَّ والتي تتناول موضوع السويسريين في مصر وذلك للإطلاع عليها في الفندق، فأجابني بأن هذا الشيء في حقيقية الأمر غير مسموح به، لكنه سيقوم هذه المرة بعمل استثناء لأنه لا يرغب أن يكون بيروقراطياً . . سحب ورقة وكتب عليها أسماء الكتب الثلاثة وطلب منى أن أوقع، ثم طلب جواز سفري وقام بعمل صورة منه ووضع كل المستندات داخل ملف بلاستيكي شفاف، أصبحت على يقين أن وجودي بدأ في مضايقة القنصل، ولكنني سألته رغماً عن ذلك إن كان لديه فكرة عن المكان المحتمل الذي دُفن فيه جدي في الحقبة السابقة وبالتحديد في القرن الثامن عشر؟ . . قال القنصل أنه لم يوجد في ذلك الوقت مدافن مخصصة بالسويسريين، ولكن من المحتمل أن يقوم القس السويسري في القاهرة بإمدادي بمعلومات جديدة تساعدني في ذلك الأمر . . قام القنصل بكتابة اسم ورقم تليفون القس بالفعل وهو واقفاً في مكانه، ثم اصطحبني للخارج، وقد بدا لي أن رأسه قد دارت من كثرة الأحداث حينما وقف ليودعني قائلا:

– مع السلامة يا سيد بلونتشلي.

– عدت إلى الفندق مرة ثانية بعد أن ذهبت إلى مطعم "السويس إير" القريب من السفارة والذي تصلصل في مدخله أجراس لها صوت أبقار . . تناولت هناك الطعام لشد قوايَ . . وقد عانيت في

طريق عودتي من الزحام الشديد فوق الأرصفة حتى أن التصادم مع الآخرين كان مستحيلاً دون إفساح حركي متواصل لتفاديهم، لاحظت أنني كنت الوحيد الذي يقوم بذلك، بينما لم يفسح الآخرون الطريق ولم يتفادوني وكأنني هواء أمر بهم! . . رأيت في هذا السلوك رد فعل انتقامي يعود إلى عصر سالف كان السادة الأوروبيين ومنهم هاينريش بالتأكيد يشقون طريقهم بالعصا بين أهل البلد .

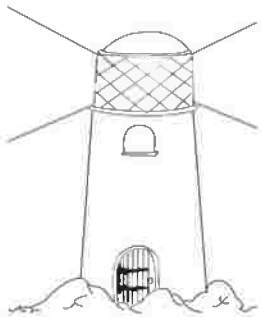

في الفندق بدأت في الحال في قراءة الكتب المستعارة ووقعت عيني بفرحة على إشارة بأن المتوفيين السويسريين من البروتستانت كان دفنهم يتم حتى بداية الحرب العالمية الأولى في المدافن البروتستانتية البريطانية. . وبعد ذلك ومع زيادة الاحتياجات البريطانية للدفن الخاص تم وقف استضافة دفن السويسريين. . اتصلت في نفس المساء بالقس السويسري وسألته عن المدافن البروتستانتية البريطانية الموجودة في القاهرة، وإن كان لا يزال لها

وجود ؟ . . كان القس لطيفاً لكنه لم يعرف شيئاً ووجهني إلى رجلين سويسريين يملكان مكتبة لبيع الكتب في القاهرة، الأب يعيش منذ شبابه في القاهرة ويعرف الكثير عن الماضي، وهو المسئول عن المدافن السويسرية.

ذهبت في صباح اليوم التالي للبحث عن المكتبة بعد ليلة لم انم فيها إلا قليلا لهواجس أحلام عن أجدادي وعائلتي، ورغم أنني لم اتصل من قبل لعمل موعد إلا أنه قد تم استقبالي بحفاوة جارفة. . كما أنهما كانا لديهما معلومات عن مدافن السويسريين القديمة والأهم من ذلك أنهما كانا يعرفان مكانها، وأكدا لي أنه من الصعب الوصول إلى المدافن البروتستانتية البريطانية عن طريق خريطة القاهرة، وقدما لي بدلاً من ذلك "محمود"، وهو أحد الموظفين الموثوق بهم ليكون مرشدا لي للوصول إلى هناك.

كنت أفضل الوقوف في الحال والذهاب إلى هناك . . نوع من الحماس أصابني مثل الحمى، لكنه لا يوجد في الشرق ما يمكن استعجاله ! . . لهذا ذهبنا إلى هناك بعد مرور يومين.

محمود كان مصرياً من أصول نوبية، ضخم وقوى البنية، أخذ يقود السيارة في هدوء وبنوع من التحفظ بطول كورنيش النيل اللانهائي الممتد نحو الجنوب، والجاري على يميننا بماء متسخ لا نقاء فيه ومثير للفزع. . بعد دقائق مررنا على مجرى العيون التي كانت

تربط النيل بالقلعة في عصر صلاح الدين وربما أيام جدي الأكبر بلونتشيلي . . انعطف محمود بالسيارة ناحية اليسار ووقف في مكان ما ثم هبط من السيارة ليستعلم عن شيءٍ ثم عاد مرة أخرى لنستكمل سيرنا بالسيارة، ثم توقف ثانية واستعلم عن شيء أخر . . وأخيراً توقف نهائيا وركن السيارة، فالطريق بدأ مساره بلا أسفلت والمهيأ فقط لعربات الكارو بحميرها . . أخذنا نبحث عن المكان سائرين على الأقدام ومحمود يسأل كل الناس عن المكان . . أجابت امرأة كانت تمسك بيمينها سكين عليه دماء وتوجهت يدها اليسرى لترفع حمامتين من قفص وتدير رأسيهما إلى الخلف لكي تذبحهما وترمى بهما في صندوق معدني! . . بعض الكلاب الهائجة الصفراء كلون الصحراء أخذت تمشى ورائنا وتلعق أعضاءها التناسلية من حين إلى أخر مع التفاتنا للخلف والوقوف قليلا . . بدا أن أحد الجزارين يعرف المدافن لأنه أشار بدقة مستخدماً ساطوره نحو اتجاه معين قبل أن يقوم بضرب رأس نعجة ليقسمها فوق مرقدٍ خشبي بثلاثة أرجل ثم يدخل خنصره والسبابة والإبهام مستخرجاً المخ ثم يعيد ضرب الرأس ثانية بالطول والعرض . . مررنا في طريقنا ببنايات وبيوت لها ساحات خلفية، منها ما هو مهجور ومنها ما هو يعج بالحياة.

أخذ محمود يسأل الجميع وكانت أسئلته ينتج عنها أسئلة مضادة! .. بل أخذت تجذب آخرين لم نسألهم عن شيء فيبادرون بالسؤال عما نستفسر عنه! .. وفجأة توقفنا أمام سور ليعلن محمود بالإنجليزية عن وصولنا:

"Here we are" –

دق محمود الباب الحديدي ولكن شيئاً لم يحدث .. فتح الباب بعد ذلك ليستقبلنا رجل قصير القامة واضعا فوق رأسه طاقية لبنية اللون.. شرح له محمود الهدف من وجودي هنا بينما كان الرجل يهز رأسه بقوة مدللاً على تفهمه الأمر حتى أنني ظننت أنه لا يوجد في العالم من يعرف قبر جدي هاينريش إلا هو! .. لكنه عندما دعانا للدخول أشار متزعزعا بإصبعه نحو النصف الأيسر من الفناء الذي كان بحجم ملعب الكرة غير أنه كان كالحاً وخالياً من الحشائش الخضراء التي حلت محلها بعض النخيلات ونباتات الصبار المتفرقة، هذا إلى جانب بعض شواهد القبور المغروسة في الأرض، أما الناحية الأخرى التي كانت مرقدا للإنجليز فكانت مزروعة بأفخر أنواع الحشائش الناعمة وشواهد القبور ناصعة البياض .. طلبت من محمود أن يسأل الحارس إن كان يعرف شيئا عن المقابر الموجودة هنا من بداية القرن، فأجاب أنه لا يعرف شيئا عن ذلك والشيء الوحيد الذي كان يعرفه هو أن أقدم المقابر الموجودة هنا والتي قد تم

إزالتها منذ فترة قصيرة كانت موجودة بالتحديد في المكان الذي نقف فيه الآن!

كانت الأرض مازلت رطبة وبدت وكأنها قد طليت بطبقة رقيقة من اللون البنفسجي.. تركنا الرجل القزم مبتعداً عنا، وأخذت أفتش مع محمود عن أي بقايا اسم يقارب اسم بلونتشيلي.. وكنت أقبل بدقات قلب خافقة مع تلويح محمود لي للاقتراب منه، ولكنه لم يجد سوى أسماء مثل "بالتسيلي" أو "شلوفمف".. على كل فهما اسمان سويسريان غير مجهولان، بعد نصف ساعة استطعت أن أحدد نظرة عامة للأمور، فمعظم شواهد المقابر والصلبان تشير إلى أشخاص انجليز بشكل عام والجزء الأخر إلى بعض الألمان.. هؤلاء الأشخاص كانوا قد توفوا في النصف الأول من القرن الماضي، واستطعت أن أحدد هوية اثنا عشر شخصاً كانوا من السويسريين وساعدتني بعض العلامات مثل الجملة المكتوبة على شاهد قبر: "لقد كرس حياته للعمل".. كان أقدم شاهد قبر فيهم يعود إلى عام ١٩٠٧ وبالقرب من المنطقة الخلفية التي قد تم إخلائها مما جعلني أظن أن شاهد قبر جدي كان هناك مع من تم إخلائهم وأنني جئت متأخراً عما يجب فقط بضعة أشهر أو عدة أسابيع.. ففي الوقت الذي أخذت أبحث داخل أرشيف مدينة

زيورخ عن دلائل تشير إلى حياته في مصر، كان آخر شاهد يدل على ذلك يتم محوه من الوجود .

نادى محمود عليّ بعد أن كان قد انسحب بعيداً وهو يشعر بالكرب والتوتر الذي اعتراني . . نادى عليّ من عند شجرة الجميز طالباً منى الحضور حيث كان لمشاهدة شاهد قبر على شكل شبه منحرف ومستنداً على جذع الشجرة، وبدا كما رأيت أنه كان الجزء الأيسر المتبقي من شاهد قبر قد تحطم الجزء العلوي منه من اليسار إلى اليمين حينما سقط بشكل رأسي، وكل ما تبقى ويمكن تسفير قراءته هو:

هاينر
١٨
بعيداً عن وط
متحداً مع

في البداية شعرت بقناعة ويقين أنه كان قبر جدي، ولكن الشك بدأ يتسلل بداخلي، إن كان الأمر يتعلق بجدي هاينريش، أم بآخر يحمل نفس الاسم ومات في نهاية القرن الثامن عشر؟ ! كنت اعرف أن اسم هاينريش في سويسرا والبلد المجاورة لها وهى ألمانيا، هذا الاسم يحمله كل طفل من ثلاثة أطفال. من ناحية كنت أكثر ريبة بسبب طريقة كتابة النص على شاهد القبر، حيث أن حرف "و" كان مما لا شك فيه إشارة إلى كلمة "الوطن" بنص "بعيداً عن وطنه"

ولكن كيف يموت الإنسان بعيداً عن وطنه "متحدا معه" "باقياً في حبه" "مخلصاً له" أم أن المقصود هنا كان الرب، على كل حال فقد أظهر النص نوعاً من الإتحاد الحميم مع هذا الوطن أو بكل وضوح إتحاد مع شيء أخر كان بعيداً عن المتوقي، وهذا الأمر بالتحديد لم يتناسب مع شخصية "هاينرش" والظروف القاسية التي تسببت في مغادرته لوطنه حينما كان شاباً وكذلك الظروف التي جعلته يخلق حياة في مصر وأعطته شعوراً لا يمكن الاستغناء عنه. . . لكني ربما أكون مخطئاً، فمن ذا الذي يدري بحقيقة مشاعره في السنوات الأخيرة والأشياء التي كانت قريبة من قلبه حينما أشرف على الموت. ربما جاءه شعور بالحنين إلى القديم المفقود أو الضائع منه في أيام صباه. في كل الأحوال لم يكن ممكناً التأكد من شيء محدد فيما يتعلق بالنص الغائب فوق شاهد القبر، وبينما كان حارس المقابر ينظر بجانبنا متلوعاً للحصول على البقشيش سأله محمود:

- أين ذهب النصف الثاني من شاهد القبر؟؟

بالطبع لم يدر شيئاً عن هذا الأمر، وضعت في يده ورقتي عملة من الأموال الكبيرة حتى أرضيه ولكنه لم يعرف رغم ذلك مكان النصف الثاني من شاهد القبر، فقط انحنى لنا قليلاً قبل مغادرتنا المكان.

الفصل الثاني

رغم أن القس قد وقف بنفسه ليشاهد إنزال البراميل من العربة الخشبية، إلا أن إحداها قد سقط على الأرض وانفتح، لم يسب القس منذ مدة طويلة ولكنه هذه المرة أخذ يسب ويلعن وكأنه عامل على العربة الخشبية، بينما وقف عمال العربة الخشبية في صمت محملقين في السائل الأحمر والبحيرة الصغيرة النابعة من البرميل والتي أخذت تغوص في الأرض حولهم بسرعة.

أصبح البرميل خالياً تماماً مع خروج عاملة الكنيسة صارخة بينما كانت تحمل في كلتا يديها وعائين. وقفت في الفناء المليء بالأتربة بينما ساد الصمت في المكان وارتسمت معالم الغضب على وجه القس ليدرك عمال العربة الخشبية أن أجر هذا اليوم وتوابعه من بقشيش وطعام وشراب قد ضاع هباءً، انحنت العاملة نحو البرميل

وضربت بكف يدها عليه فدوى صوت فارغ بداخله، بينما تحدثت هي بصوت رفيع يدل على هوة فراغ أكبر بداخلها:

– لقد أخذ الرب ما أعطاه.

أظهر القس تلو ذلك هدوءً غريباً بينما أخذ يحملق بعينين متصلبتين أمامه، الخادمة المطيعة الصماء "بيت" وقفت وسط هذه الأحداث تبحث عن عيني القس لتتعرف بدقة عما يحدث ولتتمكن من فهم ما لا تستطيع أن تسمعه، أشار القس بيده وأمر الجميع بالهدوء وقال بصوت هادئ:

– أسرعوا بإنهاء الأمر

لقد طلب هذا العام بشكل استثنائي ونظراً لظروفه عدد أكبر من البراميل يصل إلى أربعة عشر برميلاً فوق حصته التي كانت إحدى عشر برميلا ليكون مجموع ما يصله خمسة وعشرون برميلاً، وحيث أن البرميل الواحد يحتوي على مائة وعشر لتراً فالمجموع الكلى للبراميل هو ألفان وسبعمائة وخمسون لتراً من النبيذ، كمّ هائل لقضاء حاجة القس الذي عرف عنه الجميع في القرية الصغيرة المكونة من ستمائة شخص حبه الجم لشرب النبيذ ولم يخف على أحد في القرية أن القس لم يمارس شعائر شربه منعزلاً في حجرته بل كان كالصائد الذي يدعو معه الآخرين لممارسة صيده، وبهذا كان القس يدعوا للشرب معه الأخرين، ورغم أن هذا الأمر لم يكن جديداً لأنه

كان يفعل نفس الشيء منذ عمله الرسمي في مجمع الكنائس منذ عشر سنوات لكن الجديد أن الإحدى عشر برميلاً كانوا يكفون بالكاد خلال العام، وبجانب كل هذا فكانت هناك ظروف مستجدة على حياة القس حيث توفت زوجته منذ بضعة أشهر وأصبح يعيش وحيداً في بيته الأزرق المكون من طابقين.

مضى القس في العام السابق معظم وقته يعانى من فساد حياته الزوجية وهروبه لاجئاً في أغلب الأوقات إلى كؤوس النبيذ أكثر من عادته، ومع رحيل "بربرا" من بيته زادت رغبته في الشرب أكثر لتحمل معاناة الزوجية بعد الرحيل الذي استمرت وقتاً طويلاً وأيضاً لتحمل وحدته والصمت الذي جثم على بيته ولكن أيضاً حتى يقوي من عزمه في مستقبله بعد الخمسين، حتى يعيد شبابه القادم ويلهب أشواقه مع حياته المستقبلية التي تسمى "مارجريتا".

على كل حال فقد نفذت مؤنته من النبيذ ولو أن باب مخزن النبيذ لم يكن محكم الإغلاق والمفتاح محفوظاً في مكان سري لظن أن عامل الإسطبل "ميكور" كان يستمتع معه خالسه بشرب النبيذ. وعلى الرغم من أن "ميكور" كان يعرف مكان المفتاح إلا أنه أكمل عمله دون ريبه في أمره، وفى كل الأحوال فقد تجنب القس حالة العجز في النبيذ بقيامه بزيادة حصته وطلبه كماً مناسباً من النبيذ في وقت مبكر.

صحيح أن تكاليف النبيذ أرقته لكنه حسب تكاليف زوجته في الأعوام السابقة ووجد أن طلب أربعة عشر برميلاً سيكون أقل من متوسط تكاليف شرائها لطعام حتى تسد حاجتها الشرهة للأكل، أنه لم ينس أن تكاليف طلاقه منها كانت من الممكن أن تصل إلى مائتي "جولدن" يدفعها كنفقة سنوية ويجب الأخذ في الاعتبار أن الراتب الشهري للمولدة كان يصل في ذلك الوقت إلى أثنى عشر ونصف جولدن وعامل المدافن إحدى عشر "جولدن".

الفصل الثالث

كان من الطبيعي أن أرى جسديّ أمي وأختي العاريين واناً طفل صغير حتى بلغت عشر سنوات أو أثنى عشر، كانت الكنبة الزرقاء الوثيرة في غرفة جدتي يتم استخدامها كسرير للنوم. رقدت هناك عليها غير مستسلم للنوم ثم افتعلت أنني نائم مع دخول جدتي إلى الغرفة وإشعالها المصباح الصغير، أخذت جدتي التي بلغت من العمر آنذاك خمسة وستون أو وسبعون عاماً في خلع ملابسها في حركة بطيئة حتى رأيت كل جسدها العاري تماماً لأول مرة في حياتي من مسافة لم تتجاوز المترين . . بالتأكيد لم اعد أتذكر الكثير، كما أن جدتي في مثل هذا السن لم تعد جميلة على الإطلاق ولكنى كنت أعي أنها تمثل الجنس الأخر المختلف والجديد في حياتي.

هناك عينان أخراوتان بنيتان مثل عيناي لكنهما بعيدتا الصلة عن واقعنا ينظران معي إلى جسد جدتي، ينظران من داخل اللوحة المعلقة على الحائط فوق الكنبة إلى أسفل نحو الجسد الذي تحرك نحو النافذة المفتوحة ليلتقط بعض الأنفاس المنعشة ثم يرقد في السرير قبل أن يغلق الأنوار . . بقيت بعد ذلك راقداً في السرير لمدة طويلة دون أن أغفل، أنصت إلى حركة أشجار بالخارج وشعرت بوحدة رهيبة رغم أنني كنت راقداً بين جدتي وجدي الأكبر.

لم أعرف الكثير عن هذا الرجل الماثل في اللوحة الزيتية المعلقة، كما أن ما قالته جدتي عنه لم يكن من السهل إدراكه لمن هم في مثل سني، فقد قالت الجدة بكل حنكة وذكاء:

– تعرف أنني أم والدك ولهذا أنا جدتك وهذا الرجل الذي في اللوحة هو والد والدي أي أنه جدي وبالتأكيد إنك سمعت عن الأهرامات المصرية أو قناة السويس، تخيل أن جدي هذا عاش في مصر زمن طويل بل كان من المشاركين بشكل فعال في بناء قناة السويس.

ترك هذا الأمر في نفسي انطباعاً هائلاً وحتى يومنا هذا حينما أسمع جملة بشكل فعال يجب أن أتذكر جدتي التي تعلمت منها هذه الجملة.. ولكن فيما بعد تداخلت علىَ الأمور حتى أنني في الصف الأول المدرسي رفعت يدي حينما سألت المعلمة عما نعرفه عن صورة عرضتها للأهرامات قلت:

– كان جدي من المشاركين "بشكل فعال" في بناء الأهرامات.

طلبت مني المعلمة الوقوف واقتربت مني وشدت أذني ثم قالت:

– أجلس يا فشار.

لا يمكنني إنكار أن هذا الحدث المبكر والمؤسف كان واحداً من أهم الأسباب التي شكلت رغبتي فيما بعد لمعرفة حقيقة جدي "هاينريش" وما قام به بشكل فعال ... لكنني كبرت ومرت

السنون وزاد اهتمامي أولاً بنفسي وحياة المراهقة وعندما كنت ازور جدتي في بيتها في مدينة "تيسين" لم تكن تتحدث عنه رغم أن الصورة انتقلت إلى مكان أكثر حيوية، من غرفة النوم إلى غرفة المعيشة الصغيرة. . وخطر ببالي دائما أنني كلما كبرت في السن كلما بدا هو أصغر عمراً.

ولما بلغت من العمر أثنى وعشرين عاما وأصبحنا في عمر متقارب وكان عمره في اللوحة ثلاثة وعشرون عاما عادت علاقتنا من جديد ويعود الفضل في ذلك إلى صديقتي والعمل الفني الذي جمعنا . . . قلت لصديقتي:

– أنت معجبة بكل الأشياء وبمجرد ما نخرج من البيت تسطعين كالشمس من البهجة لكل من ينظر إليك، وأنا امشي بجانبك مثل الأبله . . لكني سأضع اليوم نهاية لهذا الأمر.

صنعت بيدي إشارة تدل على نهاية العلاقة بينما طرقت بيدها على الباب ونحن في مطبخها ثم قالت:

– لا أصدق ما أسمعه

قلت لها من جديد:

– تريدين جذب انتباه الجميع

ثم حدثت نفسي قائلا: "الجميع يصبحون أكثر استثارة عندما يتعاملون معك"

أخذت زجاجة نبيذ من الثلاجة وجلست على الأرض بعد أن صببت كأسا وتبين لي العالم الذي أعيش فيه مع كل رشفة، صاحت هي قائلة:

- ماذا تفعل؟ !

استمتعت بإعطائها شعوراً قوياً بأنني على وشك الانهيار وكأني قطعت شرايين الحياة. بعد عشرة دقائق تركت هي مكانها في المطبخ وأتى صوت أغنية من الصالة "La tempesta di mare" كنا نسمع هذه الأغنية دائما عندما نرقد سوياً في السرير. لم اترك لنفسي الفرصة حتى تصيدني هي مرة ثانية بهذه الأغنية وأخذت أفكر في الهجرة. ولأنني كنت ثملا فكان من السهل عليَّ اتخاذ قرارات سريعة وحاسمة وبهذا هربت منها دون وداع لأصل إلى المحطة وألحق قطار الليل المتجه نحو الجنوب.. قبل ذلك جلست على دكة من الجرانيت بجانب ساعة المحطة المحاطة بنوافذ غرف النوم في انتظار القطار.. لا أفكر إلا في رائحة الورود وأصوات الطيور المغردة مع استيقاظ جدتي من النوم حوالي الساعة الثامنة

لتفتح نافذتها وتمشط شعرها البرونزي في صباح شهر يونيو مجمّعة إياه.. قالت جدتي حينما جلسنا نتناول قهوة الصباح:

– إذن أنت تريد الهجرة إلى بلد أخرى، لقد ورثت الأمر عن جدك الأكبر لكنني سأكون سعيدة حينما تتعرف أكثر على جذورك قبل أن تفعل ذلك، أنت تعرف يا عزيزي أنني بلغت الثمانين من العمر.

أشارت نحو صورة هاينريش بإصبعها ثم قالت:

– هناك أمر في غاية الضرورة، يجب أن ينتقل هاينريش إلى مدينة "زيورخ" ورغم أن الصورة مؤمن عليها لكنني لا أريد أن اترك الأمر في يد رجال البريد بل في يدك أنت خصوصا بعد أن أتيت إليّ.. سيتم عرض اللوحة في معرض في قاعة "هيلم".

بقيت عندها عدة أيام نمت كثيراً وعرفت القليل عن جذوري، كنا نجلس في المساء تحت تكعيبة العنب وتحكي جدتي بطريقتها عن جدها التي لم تراه أبداً ولكنها سمعت عنه الكثير وأعجبت به طوال حياتها وظلت محتفظة بكل ما سمعته عنه في ذاكرتها سواء مما قصته عليها جدتها في السنوات المبكرة من عمرها، هذه الجدة التي تركها هاينريش وهاجر إلى مصر أو من ناحية أخرى من أحد أولاد هاينريش واسمه تشارلز وهو من المولودين في مصر أثناء أقامة

هاينريش هناك والذي كتب لها في نهاية حياته خطابا مفصلا عن حياته قبل أن يموت .

كانا هذان الشخصان هما المصدران الرئيسيان لمعلومات جدتي عن هاينريش وكلما زادت ثقة جدتي في مصادرها، كلما شعرتُ بريبة أكبر في صحة هذه المصادر وبالتالي في الأحداث التي سبق أن قصتها عليَّ تحت التكعيبة . . . كان من المؤكد أن جدي الأكبر رجلاً هاماً وانه كان من الرجال الأساسين الذين وقفوا مع " فرديناند ديليسبس " كتفاً بكتف لتخطي المصاعب التي واجهتهما أثناء بناء قناة السويس.

كما قالت جدتي أن هاينريش كسب ثقة خديوي مصر سعيد باشا وخليفته إسماعيل باشا ليحصل على منصب هام في الدولة المصرية وكاد أن يلقب رسميا بلقب "الباشا" ولكن قبل هجرته بقليل حدث أمر هام للغاية حيث سافر هاينريش إلى باريس مع الفنان "رودولف كولر" المنتمى إلى المدرسة الفنية "جوتسهارد" وأقام معه هناك في غرفة واحدة ورسم له الفنان "رودولف كولر" صورة شخصية مرسومة بالزيت على قماش الكتان في مساحة طولها ٤٦ سم وعرضها ٣٩ سم، هذه اللوحة معلقة الآن في غرفة جدتي لتصبح بصدق صدر الأحداث التي قصتها جدتي عليَّ . . ورغم ذلك كان من المفترض أن ارتاب ولو قليلاً في الأمر وببساطة لمعرفتي

الوثيقة بصفتين أساسيتين يتدخلان بوضوح مع حكي جدتي للتاريخ المنقول والذي يمر على هاتين الصفتين حتى مع محاولة الوصول إلى درجة من الحياد والصراحة. فمن ناحية تميل جدتي إلى أن ترى دائماً كل الأشياء بإيجابية وتفاؤل يعد العالم بأكمله كباقة للسعادة، هذه وتلك الملكة آثرت ببساطة إلى بقاء جدتي في هذا العالم حتى بلغت من العمر مائه وثلاث أعوام، أما الصفة الثانية التي كانت لدى جدتي هو قدرتها على الخيال المسهب، وبهذا أصبح من الواضح أن هاتين الصفتين يمكنهما أن يؤديا بسهولة إلى خلق عالم آخر في كل ما كان وكل ما يكون . . . وكل الأحداث السوداء لا تجذب في جدتي أي نوع من الرغبة في الكشف عنها أو إلقاء الضوء عليها، على سبيل المثال لم تحك جدتي كلمة واحدة عن جدتها "آنه إليزابيث بلونتشيلي" رغم أنها بكل تأكيد كانت تعرف قصتها جيداً.

هذه القصة التي كانت فحواها قيام آنه اليزابيث بقتل الأب صانع الأزرار دافيد بلونتشيلي والأم عن طريق دس السم لكل منهما ثم وضعت نفسها بعد ذلك في وأشعلت النار في نفسها. لم تر جدتي في هذه المرأة شيطانه بل امرأة قامت بجريمة مدنية. لم تحك جدتي مما ذكرت كلمة واحدة عن هذا الحادث طيلة حياتها وبدلاً من ذلك كانت تكرر حكايتها تحت تكعيبة العنب عن أبيها وهو الابن الذي تركه هاينريش في سويسرا، هذا الابن "تيودور بلونتشيلي" الذي

اخترع سوسة البنطال، هذا الأمر الذي لم أشك لمدة طويلة في صحته وأصبح هو وقناة السويس مدعاة للزهو والفخر لكل الأجيال التالية في عائلة هاينريش وعندما أخبرت أبي الذي يناهز التسعين من عمره بما يقال أن جده ليس مخترع سوسة البنطال إنما المخترع الحقيقي هو المخترع السويدي "صانباك" أجابني بوجه عابس:

– الأشياء كلها تضيع منا أولاً قصة "ويليم تيل"، ثم سمعة السويسريين وأخيرا "سوسة البنطال" الذي قام بها جدي، قلت له:

– لكن جدنا "تيودور" كان بالتأكيد إنسان ذو شخصية وله صفات عبقرية، ومن المؤكد أنه قام باختراع آلة (لجلخ أشباه الحجارة) .

فيسألني أبي:

– ما هي أشباه الأحجار؟

أوضحت له أن أشباه الأحجار هي أحجار تشبه الأحجار الكريمة. فقال أبي:

– حتى الأحجار غير كريمة.

يبدو أن الأمر تراءى له وكأنه نوع من اختراع للتزييف، دفس أبي وجهه بين يديه فقلت له:

– يجب أن نستوعب الأمر يا أبي، صحيح أنه شيء محبط، أعني مسألة "سوسة البنطال" كونها ليست من اختراع جدي

ولكنها ليست بهذه الأهمية، بدونها كان من الممكن أن يعيش الإنسان مرتدياً بنطاله بأزرة أو خطاف صغير أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

لم أرغب في الإقلال من شأن المخترع السويدي "صاندباك"، لكن كل ما كنت أرغب في توضيحه هو أن هناك أشياء في التاريخ الإنساني إن لم يتم التوصل إليها فإن الإنسانية كانت ستستمر في تقدمها دون أي تأثير يذكر، صحيح أن سوستة البنطال توفر بضع ثوان أكثر مقارنة بفتح خمسة أزره، وإننا لو افترضنا أننا نقوم باستخدام السوستة عشرة مرات يوميا، فيعني ذلك أننا نوفر ما يقرب من ثلاثين ثانية كل يوم. . . فجأة ضاعت مني خطوط الحديث وأظن أن سبب هذا ليس قلة قدرتي على التركيز بل بالأحرى لأنني لاحظت أن أبي بدأ يتحدث عن شيء آخر ولم يعد يستمع إليَ ووجدته بالفعل يقول لي:

- إذن من الممكن أن تكون أيضا مسألة مشاركة جدنا هاينريش في حفر قناة السويس ليست إلا "فشرة كبرى"!

كنت على وشك أن أوكد على كلامه وأخبره بثقة أنني كنت قد وصلت إلى نفس النتيجة من قبل بعد البحث في هذا الأمر، لكنني فضلت الحديث عن مصداقية هذا الحدث الهام، بدلاً من وصفه بـ "الفشرة الكبرى" وأخبرته قائلاً:

– هناك مؤشرات حقيقية تدل على علاقة هاينريش في المشاركة في بناء قناة السويس، لقد كان "دليسبس" هو الأب الروحي لـ "ماري" ابنة هاينريش.

أنفرج وجه أبي بعد سماعه هذا الخبر فعرفت أنه لأول مرة يسمع بذلك. حينما جلست مع جدتي تحت التكعيبة لم أرغب في الشك فيما قالته، ولم أكن في حاجه إلى فحص ما سردته عليَ بالبحث عن أدله، فشجرة العائلة أعطت انطباعاً لهذه المصداقية، ولما كنت أسأل جدتي كيف عرفت كل ما كانت تحكيه، لم أكن فعلاً أسألها بدافع من الشك، بل من محض اهتمامي بالأمر، ولكن جدتي كانت ترد قائلة بانفعال:

– هذه الأشياء معروفة بالبديهة!

كانت تتهمني بنوع من السلبية في النظر للأمور وتخبرني في دهشة...

– وهل كانت جمعية الفن في زيورخ ستضم اللوحة التي رسمها لجدك الفنان الكبير "كولر" إلى معارضها إن لم تكن اللوحة أصلية؟!

ورغم قوة أقناع كلامها إلا أني قمت بعد مرور ثلاثين عامًا على هذا الحديث بالبحث في هذا الشأن والتأكد منه.

غطينا لوحة هاينريش بعد أن نفضت جدتي التراب عنها بحرص، أخبرتها أنه يمكنني القيام بتدوين قصة حياة هاينريش

فحدثتني أنها تنوي عمل ذلك فيما سيتبقى لها من عمر وقبل رحيلي أو هجرتي، وقفت عند بوابة الحديقة من أجل وداعي بصوتها المتهدج متمنية لي و "له" السلامة وتأبطت جدي في اللوحة إلى محطة حافلات السفر عبر المدن، وسرت إلى هناك عبر طريق الغابة.

عاشت جدتي أكثر مما تخيلت، بل ووقع لها حادث وكسرت ساقها ثم عادت تحاول المشي من جديد، ثم سارت مرة أخرى بدون عصا تتكئ عليها، بلغت جدتي من العمر مائة وأصبحت من المعمرين، وتمت استضافتها في الراديو في عيد ميلادها المائة وواحد والمائة واثنان وعندما توفت بعد ذلك كنت أنا في ريعان الرجولة، وورثت عنها الكراس الأزرق وكتاب للطبخ وعملة رومانية قديمة، حصلت من الكراس الأزرق على أهم المعلومات التي كنت أرغب في معرفتها، أما كتاب الطبخ فإنه لم يحتوي على وصفات للطهي بل أمور أخرى كانت مفقودة سجلتها جدتي الكبرى زوجة هاينريش.

الفصل الرابع

تقع القرية التي نشأ فيها هاينريش في وادي يدعى "ليمات"، كان ذلك الوادي في الماضي بقعة خلابة للطبيعة، والآن تحول مثل كل المناطق المحيطة بمدينة زيورخ إلى منطقة عادية متوسطة الحال، كما أنه لم يعد يمت إلى الريف بشيء يمكن ذكره، اللهم إلا بعض الأدوات الزراعية المعروضة في متاحف صغيرة، والتي تعدّ تذكاراً لماضي مثل تلك القرى. . يسيطر مركز الخدمات الآن على قلب القرية وبه متجر وبنك، وتمت إزالة حدائق الأعناب والفاكهة التي أحاطت المكان من قبل. . حدثت نفسي عندما تجولت في المكان. . أشـــــعر بجدي لا يزال موجوداً هنا في هذه القرية التي تزدحم بسكان جدد يتكاثرون كل يوم، قلت لنفسي ذلك وأنا أتطلع إلى النهر وشعرت به يجلس معي ليهمس لي من وقت لآخر وكأنه يعيش بداخلي ويريد أن

يوقفني ويتحرر من قيوده.

كان نظري إلى منزل القس يضفي عليّ نوعاً من السكينة والسعادة، كان سور البيت مطليًا باللون الأبيض بينما طليت النوافذ الخشبية باللون الأخضر، مر أكثر من مائتي عام على بناء هذا البيت، خلف السور أمام البيت كان هناك نافورة بطابقين مصنوعة من الحجر الجيري، تلمستها برفق وتخيلت القس بلونتشيلي يجلس هنا ويشرب نبيذه منتظراً خروج المولود الجديد بينما تخرج إليه المولدة حاملة المولود "هاينريش" ملفوفا في القماش وتضعه بين يديه، في ذلك الوقت دقت عقارب الساعة الخشبية في الكنيسة تعلن الثالثة عصراً.

تحركت بضع خطوات من النافورة نحو الباب الذي يعلوه مصباح مضيء وضغطت على الجرس لأنني كنت على موعد عند الساعة الثالثة مع الحفيد العشرين لهاينريش.. الذي كنت قد اتصلت به وحصلت منه على موافقة بزيارة محل ميلاد جدي الأكبر .. فتحت الباب سيدة في النصف الثاني من عمرها فقمت بتحيتها قائلا:

– صباح الخير يا سيدتي، ربما تكونين زوجة القس.

أخذت تتفحصني جيدا، بدا أنها ظنت أنني ممثلاً لإحدى شركات البيع، ولا بأس فإن ذلك أفضل من أن تظن أنني طالب حسنة، أوضحت لي السيدة بأدب:

- أنا لست زوجة القس ولكني حماته، كيف يمكنني أن أساعدك؟!

أفصحت لها بصوت متهدج عن الغرض من زيارتي، بدا على وجهها التوتر وكأنني جئت في وقت غير مناسب، لكنها ذهبت لإحضار زوج أبنتها . . كان شاباً صغيراً بسيطاً، وقف مرتدياً بنطال رياضي بني اللون. . كان هناك منشفة موضوعة فوق كتفه وأخبرني القس بأنه نسي الميعاد وأن حماته كانت تقص له شعره وقت مجيئي، وأن تأجيل قص الشعر لفترة وجيزة لن يزعجه في شيء، وأقترح عليَّ أن أقوم بجولة داخل البيت، وأن أتحرك بدون حرج. . كنت سأشعر بالحرية أكثر في حالة وجوده معي، لأن تجولي في المكان وحدي مقتحماً خصوصية أسرته سيضع نوعاً من الغشاوة فوق عيني. . كانت الأبواب مفتوحة، نظرت من الخارج للغرف دون أن أستطيع الإطلاع على التفاصيل بالداخل، الغرفة الوحيدة التي دخلتها وأطلعت عليها هي الغرفة الكبيرة المطلة على الكنيسة ذات الذكريات المهمة في حياة هاينريش. من هنا وقفت وأخذت أتطلع إلى رأس برج معلق عليه شارة لقياس الريح والذي كان مطليا باللون الذهبي وتخيلت كيف تعلق هاينريش بهذا المنظر وتطلع إلى الإمساك به والنظر لمحتواه، حتى وإن أخبره أبوه أن رأس البرج لا تحتوي على شيء سوي بعض المستندات. . وكان أبوه يستخدم رأس البرج كأداة

لتربية هاينريش خصوصا حينما يقوم بأفعال شقية أو لا يسمع الكلام، حينئذ كان أبوه يعلق على الأمر قائلا: للأسف سيبقى رأس البرج كما هو لفترة أطول دون أن تتمكن من الإطلاع عليه. . نظرت من النافذة بعين هاينريش حينما كان يتطلع إلى عودة أبيه القادم من الكنيسة متأخرا بعد صلاة ظهيرة يوم الأحد ليسلم جواده لشرب الماء إلى عامل الأصطبل ميكور. . يلوح الأب إلى أبنه هاينريش، الذي يهرع إلى المطبخ ليبلغ عن مجيء الأب، فتسرع الخادمة بت – وهي ضعيفة السمع – لحمل الأواني من المطبخ وتخلع مريلة المطبخ المخططة باللون الأبيض والأحمر ويجلس الإخوة الثلاثة حليقي الرأس على مائدة الطعام بالترتيب حسب أعمارهم، كان هاينريش في الترتيب الثاني، على جانب من يدي أبيه التي يرسم بها الصليب، اقتربت الأم عدة خطوات من الأب قبل أن يجلس على المائدة وهمست له بشيء باللغة الفرنسية فقال متعجبا: ماذا ؟ ! فقط قليلاً من النبيذ ! . . لم يتل الأب صلاة الطعام بل أخبرهم بالألمانية الفصحى – كان لا يتكلم بغير الفصحى حينما يتحدث عن موضوع هام– أن أهم شعراء لسان اللغة الألمانية قد وافته المنية في يوم الثاني والعشرين من الشهر. . صمت الأب قليلا ولم يفهم هاينريش غير كلمة لسان لهذا أخرج لسانه أثناء صمت أبيه، لم يصفعه الأب لكنه منعه من الجلوس معهم وأمره بالذهاب مرددا العبارة الشهيرة "

للأسف سيبقى رأس البرج كما هو لفترة أطول دون أن تتمكن من الإطلاع عليه"

رأيت هاينريش يغادر المائدة، كان يمشي بنوع من العرج حيث كان قدمه الأيسر أقصر قليلاً عن الأيمن، تحرك متمايلاً مارا بالنافورة ومخزن الغسيل متجهاً إلى حظيرة الطيور، حيث كان يتخفى هناك دائماً عن الأعين أو في حالات طرده من البيت لأي سبب من الأسباب، ثم يعود مستضيفاً معه بعض البراغيث والقمل في بيت والده القس، جلس بكياً على كومة من الطوب ثم أخذ بعد ذلك يقضم في الجزء العلوي الذي أبقاه من خبز المدرسة من اليوم السابق، وربما كان سيرمي بالخبز بعيداً لو علم أن أبيه هو صاحب الفضل في حصوله على هذا الخبز، لأنه هو صاحب فكرة معونة الفقراء والإدارة المدرسية ودار الأيتام وتأمين الماشية، هذا إلى جانب عمله في إدارة الكنيسة، كما أنه كان أول من أقام هذه العادة. . عادة توزيع الخبز المدرسي، لتنتشر بعد ذلك في أماكن أخرى وتستمر حتى عصرنا هذا وربما لا يعرف الكثيرون اليوم أن جدي الأكبر "هانز كونراد بلوتشيلي" هو صاحب فكرة الخبز المدرسي. مد هاينريش يده ليحفر في الأرض ويأخذ العلبة المعدنية المدفونة ويفتحها و يأخذ منها العملة المعدنية ذات اللون المائل إلى الاخضرار ، كان قد وجدها من قبل وتأكد أنها ذات قيمة ولا يمكن مقارنة أهميتها

بأي عمله أخرى مثل الخمسون مليماً أو الأربعون قرشا أو حتى الجنيه، وعرف أن قيمتها ليس لها حدود، كان يحلم أن يشتري بقيمتها عندما يكبر عربة بعجلات ويهاجر بها مع أمه إلى أمريكيا ويعاقب أبيه بذلك. . . ترك هاينريش أبيه ينفخ في البوق كما يحلو له ثم أخفى العلبة مرة أخرى، كان نداء البوق بمثابة دعوة لهاينريش من أبيه حتى يعود مرة أخرى ويخرج مع العائلة للتنزه. . قام هاينريش بعد ذلك ليدخل البيت فأسرعت لألحق به ونلتقي مرة أخرى عند سلم البيت. . لم ينتهد أثناء بكائه، قمت بمسح دمعه فنظر إليَ بمودة مندهشاً وسألني من أكون. . أخبرته أنني واحد من أحفاده، وتركته وخرجت إلى الحديقة بالخارج وأشعلت سيجارة واستندت على جزع شجرة يابسة منتظراً خروج العائلة بصحبة الأب بلوتشيلي بشعره الرمادي وذقنه البيضاء، وهاينريش الذي كان صبيا في الخامسة عشر من عمره وتبدو عليه الصرامة والهموم مقارنة بأخيه كارل، أيضا الأم مارجريت كانت ملامحها مختلفة فقد فقدت بعضاً من نعومتها بعد أن أتمت الأربعين وأصبحت في ذروة نضوجها، لم يكن الأخ الأكبر كونراد موجودا معهم. . تحرك الجميع في يوم من أيام أغسطس حيث الطقس الحار الممتلئ بالرطوبة في المنطقة المرتفعة المزروعة بالأعناب في اتجاه الشمال الشرقي من القرية، وأخذ الأب قسطاً من الراحة ولم يتورع في إعادة قصته كما فعل مئات المرات عن

المستعمرة الرومانية التي كانت موجودة في هذا الجزء من القرية وأنه هناك بقايا أسوار وخزف وعملات تملأ هذه البقعة من الأرض وأنه قد تم انتدابه ضمن فريق العمل الخاص بالحفر القادم من جمعية الآثار في زيورخ للتنقيب وذلك لأنه كان يجيد اللغة اللاتينية ومطلع على التاريخ الروماني، وهنا سأل الأب هاينريش إن ما كان يرغب أيضاً في تعلم اللغة اللاتينية، استندت مندهشا مرة أخرى بظهري على جذع شجرة الكمثرى، لأنني أطلعت بنفسي من قبل على تقرير جمعية الآثار وجاءت فيه رواية مختلفة تماما عن التي حكاها الأب وبالتحديد ذكرت على النحو التالي:

"لقد تم استجواب العديد من أهل القرية الذين عثروا من قبل على أحجار مدون عليها كتابة تخص الكتائب الرومانية وعملات معدنية، وقد تم إحضار ما وجدوه من أحجار إلى قس القرية الذي لم يستطع قراءة أي شيء أو تفسيره، أما العملات فقد اختفت خصوصا أن أحدا لم يقيمها تقيماً ماليا مناسباً"

سأل الأب هاينريش مجدداً إن كان يرغب في تعلم اللغة اللاتينية ويلتحق بالمدرسة الثانوية ويصبح قساً . . أجابه هاينريش بالنفي . . وعليها استرد الأب وأخبره أنه لا يريد أن يصبح شيئا في المستقبل . . فرد هاينريش:

- بلى

سأل الأب متلهفا لمعرفة ما يتطلع إليه أبنه عن تصورات المستقبل:

– ماذا إذن؟ . . مفتش أثار القرية؟

تهدج صوته بسبب أحباله الصوتية أثناء نطقه للكلمة حيث كان في مرحلة المراهقة وعليه ضحك كل من أخيه وأمه، بينما بدت خيبة الظن على وجه أبيه فما فوظيفة المستقبل التي يتمناها لا يرغبها غير السفهاء، ولو أن أبيه عرف ما أنجزه هاينريش في التنقيب لأدرك الدافع وراء ما يتمناه أبنه، فهاينريش استطاع خلال السنوات السابقة أن يعثر على ست عملات أثرية ومشط صغير مصنوع من العاج وعدد كبير من الأحجار الرومانية التي دفنها في حظيرة الطيور.

قال الأب متحدثاً إلى هاينريش أثناء مشيهما في الطريق مع الأسرة:

– هاينريش لا يمكن لأحد أفراد عائلة بلوتشيلي أن يكون له وظيفة كهذه، لست ضد تعلم مهنة حقيقية فأبي كان يعمل في المحاجر، وأخيك كونراد تعلم مهنة الدباغة، وأنا أقدر مهنة صانع الأحذية أو الحدادة، لأن المهن الحقيقية هي التي تباركها يد الله عن حق، لكن بركة الرب لم تصلك بعد، وربما يكون قدرك مازال معلقاً للوصول إلى شيء آخر، إن عقلك مازال بسيطا وخلقك مازال ليناً، أنا أريدك أن تدرس بالمدرسة الثانوية وتلتحق بالجامعة لتدرس علوم الدين واللاهوت، بشرط أن تبتعد في دراستك الدينية عن محاضرة دكتور دافيد شتراوس، هذا المدرس الذي ينشر التخبط حول

المسيحية ويضعف من أصولها، وفي ظني أن قريبنا العم الأستاذ الجامعي في صفنا أيضا، لقد تحدثت معه ومع والده صاحب محلج الحرير بخصوصك وهما على استعداد لتوفير لك محل الإقامة احتياجاتك الغذائية في بيتهم الجميل على شاطئ نهر ليمات، فما رأيك إذن؟

– لا أرغب في القيام بذلك

كانت هذه جملة صغيرة أعرفها، وأعرف قدراتها في إسكات كل شيء، بل إنها جملة تسكت أحيانا العالم بأكمله، لكن والد هاينريش يحب العالم غير الصامت ويدافع عنه لهذا صرخ في وجه هاينريش قائلاً:

– أيها الولد الكسول الفاشل، تريد أن تدفن كل قدراتك لتنتمي إلى عالم الفاشلين الماثلين خلف هذه الأقفاص، حيث تقبع اللصوص والرعاع والعاهرات.

قال هاينريش أنه يرغب في القيام بشيء له علاقة بصناعة الحرير، تنحنح الأب وقال بعد أن سكت قليلاً:

– على العموم أن تكون ترزياً أفضل بكثير من أن تكون متشرداً.

– لا يا أبي أنا لا أرغب في أن أكون ترزياً ولكني أرغب في الاتجار في الحرير.

قال الأب:

– إن العمل كتاجر يمكنه أن يوفر لك دخل وحياة تصرف بها على عائلة، لكننا سنرى، ولا يمكنني أن أوعدك بشيء محدد الآن، فمازالت أرغب أن تعمل قساً في المستقبل

بدأت السماء تمطر، فتراجعت إلى بيت القس تاركاً الحديقة، وقمت بالتنحنح حتى يمكنهم ملاحظة حضوري، كان القس الصغير لايزال يقوم بحلق شعره وقد قدم على التو من الحمام، شكرته على السماح لي بفرصة التعرف على بيت وحديقة جدي الأكبر، وسألته إن ما كان هناك شيء مادي هام قد وجده يتعلق بتاريخ العائلة، فأجابني بالإيجاب وذهب للبحث عن ذلك، وانتظرته أنا في مدخل السلم، انتظرت قدوم الأجداد ولكنني لم أسمع شيئاً ولم أشعر بشيء . . بعد ذلك أخذت في احتساء القهوة وأطالع الأوراق التي أعطاها لي القس الشاب، كان أهم ما في هذه الأوراق مستنداً يحكي فيه هاينريش عن فتحه لقبة الساعة الموجودة في الكنيسة، وجاء في المستند:

"تعود أهمية البرج والكنسية في قرية أوردورف معاً منذ خلق العالم في عام ٥٦٤٣ ق.م وحتى بعد ميلاد المسيح في عام ١٦٨٣ مع دخول السلطان العثماني الكافر إلى البلاد بصحبة ٢٤٠٠٠٠ رجل"

كان بوسعي أن أتخيل تأثير سماع هذا المستند على هاينريش وأنه فتح فمه مذهولا أثناء تلاوة أبيه عليه محتوى المستند وأنه نظر

إلى الكنيسة في أعجاب بتاريخها القيم، وأن أحد سلاطين الشرق قد دنسها باقتحامها، لقد كان محتوى المستند يصف خطر وصول الأتراك وكأنهم يقفون على حدود قرية أوردورف نفسها، رغم أنه من المعروف أن العام السالف ذكره ١٦٨٣م يصل الأتراك إلا إلى حدود مدينة فينا وأنهم حاصروها زمنا دون أن ينجحوا في إسقاطها ثم عادوا من حيث أتوا، أما سويسرا فإنها لم تكن في محط اهتمامهم من الأساس، وأنه في ذلك العام لم يكن هناك أي داع للشعور بالخطر أو التهديد . . ولكنني أعرف أن هذه الدولة تعيش دائما وحتى يومنا هذا بشعور أنها وحدودها تقع تحت خطر وتهديد مستمر، تذكرت ذلك الأمر أثناء احتسائي القهوة، كم يؤلمني حقاً ذلك الشعور الوطني الغريب الذي يرفض أي إدعاء يقوم على زوال الخطر أو التهديد المحيط بسويسرا، حتى أنني على يقين أن أي تعبير عادي عن الحياة دائماً يؤخذ على محمل دفاع وطني صارخ حتى وإن كان أشهر الأغاني الشعبية المعروفة مثل "يا آنستي سأدفع أنا"

٥٠

الفصل الخامس

قرأت في كراسة جدتي ذات الغلاف الأزرق:

درس هاينريش علم اللاهوت حسب رغبة أبيه الحاسمة، إلا أن هاينريش كان عنيداً . . فقد أكد لأبيه أنه بعد انتهاء دراسته فلن يكون بإمكانه العمل كقس وواعظ، فهو يشفق على نفسه من تحمل تبعات المسئولية الروحية للآخرين . . كما قرأت في خطاب طويل من شارل – أكبر أبناء هاينريش من زوجته المصرية – إلى جدتي:

درس والدي علم اللاهوت في زيورخ، ثم انتقل إلى باريس في النهاية حيث عمل قسيسا، وكان رجل تقياً ورعاً، ودائما ما يلتقي بالقساوسة الألمان ويلقي خطبة الأحد لبث روح الأمل والسعادة في نفوس المصلين. . . وبمقارنة الخطاب بمذكرات جدتي نجد تناقضاً، فمن المسلم به أنه درس علم اللاهوت، إلا أن ذلك يناقض محل إقامته بعد الدراسة وما حدث بالفعل. . ليصبح الأمر مثيراً للدهشة، فحسب إحدى الروايات التي اطلعت عليها، فقد التحق

هاينريش وهو في السادسة عشرة من عمره – عام ١٨٤٠– بإحدى المدارس المتخصصة لدراسة التجارة، وعندما لم يفلح في ذلك فقد فضل أن يدرس علم اللاهوت نزولاً لرغبة ولإسعاد أبيه، رغم أن ذلك يخالف هواه ويناقض المستقبل الذي يراه لنفسه . . ذهب هاينريش إلى مدينة ارلن باخ الواقعة على بحيرة زيورخ والتحق بالدراسة بأحد المعاهد، وتم تأهيله للحصول على الشهادة الثانوية العليا – في زيورخ – لأول مرة (أكتوبر ١٨٤٢) . . ففي سجل التلاميذ كان هاينريش مقيداً تحت رقم ٣١، فقد توسط له أحد أعمامه –والذي يملك مصنعاً للصابون وابنه الأكبر أستاذ في القانون ومدير البلدية– ويدعى جي.سي. بلونتشيلي . . وكان مدونا بالسجل المدرسي بجوار رقم ٣١ أنه أنهى الدراسة في منتصف يناير ١٨٤٣.

هذا أمر يدعو للحيرة أن ينهي دراسته خلال أربعة أشهر فقط بالمدارس الثانوية! فلا تدري هل كان فذا ونابغاً حتى يمكنه ذلك، أم أن نفوذ عمه هو الذي فتح له باب التعليم العالي بالجامعة؟! . . في كلتا الحالتين فمن الواجب التحقق من الأمر، وعموماً فإن سجلات الجامعة غير مدون بها اسم هاينريش كـ دارس لعلم اللاهوت في زيورخ في الفترة من (١٨٤٠– ١٨٤٥) . . أمر محير فعلاً!، فإذا لم يكن يدرس آنذاك فماذا كان يفعل؟!

توفى والد هاينريش في مايو ١٨٤٣ عن عمر ناهز السبعين عاماً، كما هو مدون في سجلات وفيات الكنيسة الإنجيلية . . وفي إحدى صفحات ذلك السجل الكبير -الذي كان يحوي ثلاثة عقود من الزمان- كان مدونا فيه تاريخي ميلاد وتعميد هاينريش، وسط أسماء ومدونات لا تكاد تحصى.

كان هاينريش يعايش عقدة الذنب، ويعد موت أبيه راجعاً لأسباب إخفاقه الدراسي وليس لمعاناة أبيه من داء الكبد . . وفي الأسابيع التي تلت موت أبيه، كان عليه أن يترك البيت الكبير التابع للكنيسة التي عمل بها والده . . ذهب هاينريش إلى نزل القساوسة، وأخذ ما يخصهم وقام بترتيب أغراضهم وتحزيمها، وعندما فرغ منها وقف مع والدته في الحجرة الفسيحة التي كان أبوه يعظ فيها أكثر من ثلاثين عاماً، وتغشى سمعه سؤال والدته الملح:

- وماذا بعد ؟ !

كان مندهشا وهو ينظر إلى ذلك المربع على الحائط الذي يغمره نور ساطع، يقرأ فيه: "الرب أعطى . . الرب أخذ . . تمجد اسمك يارب في السموات"

هزّ هاينريش كتفيه باستسلام، وسرعان ما تداركته رحمة الله قبل أن يغادر المنزل، فجاء نبأ يحمله ساعي البريد : برقية مرسلة من عمه يرشحه للعمل بمحلج قطن لدى أحد معارفه يدعى هيرلن،

كان قد حادثه عن أمر هاينريش، وقال هيرلن أنه على استعداد لاستقبال الشاب في محلجه ليصنع منه تاجراً كفؤاً في ذلك المصنع. . وأضاف العم بلونتشيلي بأنه لا يساوره الشك أن هاينريش سيكون في المستقبل القريب أكثر حظاً واستقراراً، كخمر جديد في زقاق جديد !

كان هاينريش يشعر بالمسئولية حيال والده المتوفى أكثر من شعوره إزاء الأحياء، وأدرك أن عناية الله لم تتخل عنه بعد وفاة أبيه ولا عن أمه التي تغالب دموعها وأحزانها .

وفي صيف ١٨٤٣ على ضفاف بحيرة زيورخ كان هاينريش على السفينة المتجهة إلى مدينة ريشترزفل، ليصبح تاجراً محنكاً يتاجر في القطن ويبيعه، ويلتقي وهو يتسوق بـ اليزابيث سميث ابنة الخباز، تلك الفتاة الشقراء ملتقة القوام، ليتبادل معها النظرات الحارة!

الفصل السادس

لاشك أنى ركبت الصعاب قبل أن اوفق في العثور على قبر هاينريش ومعاينة شاهد القبر . . ولكن لم يبدد ذلك إنزعاجى – رغم توقعي – من عدم التمكن من العثور على أية إيضاحات عن حياته وأعماله بمصر، فلم يكن آنذاك وجود لسفارة أو رعاية للجالية السويسرية بمصر خلال إقامة هاينريش بها .

ونتيجة لعدم وجود سفارة سويسرية بمصر لجأ هاينريش للسفارة النمساوية لطلب الحماية، في الوقت الذي كان يلجأ الغالبية من أبناء جلدته للسفارة الفرنسية . . عموما أصبح هاينريش أحد الرعايا الأجانب التابعين للسيادة البابوية، دون مطالبة من النظام العثماني أو القانون السويسري، فكان سعيد الحظ بذلك .

سبق سفري للقاهرة مراجعتي لوزارة الخارجية النمساوية، وبالبحث في الأرشيف الخاص بالسجلات لم يتم العثور على أي ملف خاص بـ هاينريش فلسوء الحظ كانت الملفات مهلهلة وممزقة، ولم تتمكن من العثور على أية نتائج إيجابية، كما لم نعثر على أية معلومات من سجلات المقر البابوي بالقسطنطينية.

ظل الأمل يراودني في الوصول إلى ما أنشده، وكنت لا أدخر جهدا في سبيل ذلك بالرغم من الواقع المحبط من النتائج السلبية . .

وقد تجلى ذلك الأمل في شخص يعمل بإدارة المحفوظات الوثائقية المصرية التي أرشدتني إليها القنصلية السويسرية.

ولكن كيف السبيل للوصول إلى ملف هاينريش؟!

كان من الواجب أن أستعلم من القنصل السويسري أثناء زيارتى للقنصلية . . فاتني ذلك، فاتصلت به من الفندق لأستفسر منه، فأرشدني إلى السيدة سين الممثلة الثقافية للسفارة السويسرية . . ذهبت إلى مكتبها الذي يقع خلف السفارة في مبنى متواري ومتواضع، وجدت جرو هنالك يلعب بكرة تنس، وهناك استقبلتني السيدة سين . . لم يكن استقبالها ذا طابع رسمي ولكنه كان ببشاشة وترحاب.

مثلت لي الإدارة الوثائقية المصرية عائقاً من الصعب اجتيازه، إذ يتطلب الأمر - كما أوضحت لي السيدة سين - خطاباً بطلب البحث وموضحاً فيه الغرض من ذلك، ولا يعرض ذلك الخطاب على إدارة المحفوظات الوثائقية للبحث، بل يخضع أولاً لرأى الجهات الأمنية، وقد يستغرق الأمر شهراً في أفضل الأحوال قبل أن تصدر جهات الأمن قرارها بالقبول أو الرفض.

كان من البديهي الانتظار الطويل، ولكن لا طاقة لي بذلك، فأخذت استقصى عن أسلوب آخر لاختصار تلك الإجراءات . . فإن توصلت لشخص يعرف آخر يعمل بإدارة المحفوظات أو يتمكن

من دخولها ويبحث عن الملف الخاص بـ هاينريش بلونتشيلي، فذلك هو الغاية والمراد !

ولحسن الحظ عثرت على شاب مصري - في وقت قصير - قريب لأحد العاملين بإدارة المحفوظات يمكنني من الدخول بصحبته، والتحرك بحرية ودون عوائق . . فكان لي بمثابة المرشد والشفيع والمترجم . . وصحبت ذلك المرشد معي في زيارة للسيدة يسين، وقد حصلت على خطاب توصية باللغة العربية باسم المؤسسة الثقافية السويسرية وموثقا بخاتمها، وكان ذلك قبل يومين من توجهنا لإدارة المحفوظات المصرية.

توجهنا لإدارة المحفوظات بحي بولاق بالقاهرة، ووقفنا أمام بنائها الضخم الذي يضم بجانب الإدارة، مقر لوزارة الثقافة والمكتبة القومية . . كان مرشدي يتحدث بلغة إنجليزية شق علىّ فهمها، حتى أنى تشككت في نفسي إن كنت بالفعل يمكنني التحدث بالإنجليزية وفهمها ؟ ! . . إلا أن المرشد كان لطيفاً وودوداً مما ساعدنا على اجتياز الحرس الخارجي المسلح للمبنى دون تحرش أو مضايقات لنا بالأسئلة . . كان علينا المثول أمام نقطة الحراسة الداخلية الواقعة على يمين المبنى عقب بوابة المدخل، وتضم مبنى به حارسين . . أخذ الحارسان جواز سفري، وساورني إحساس بالقلق . . مشينا عبر الممرات وقد ساورني هاجس في نفسي بإحساس المعتقل، أسمع

فيه صياح المعذبين مدويا ! . . وعند قاعدة الدرج المؤدى إلى الطابق العلوي، كان حارسان يجلسان خلف منضدة معدنية. . قرأ الحارسان خطاب التوصية، ولم يعبأ بما جاء فيه من أهمية التفاعل الثقافي بين سويسرا ومصر، وعقب مشاورات طويلة قررا إتاحة السبيل لنا للصعود لأعلى حيث الأقسام المختصة بإصدار القرارات.

ناديت هاينريش في وجداني، وبعزيمة أحادثه :

– هاينريش . . أنا قادم!

عندئذ فتح أمامنا الباب المؤدى لتلك الأقسام، فدخلنا غرفة ضيقة لنجد رجلا بدينا على عينيه نظارة طبية ويجلس خلف مكتب صغير، حيانا بتجهم وتحدث مع رفيقي بالعربية، وبعد أن طالع في الخطاب بسرعة ارتشف من كوب شاي أمامه، ثم أصدر بأصبعه حركة لاحظتها من قبل رجال شرطة المرور بمصر، كانت تعنى رفض خطابي ومن ثم فعلينا المغادرة! . . في خارج الممر سألت مرشدي إن كان متاح الاتصال بمدير إدارة المحفوظات، فأجابني وإن كنت لم أفهم إجابته إلا أنني فهمت كلمة واحدة هي الجهة الأمنية، واستنتجت أنه ليس من السهل التعامل معها، فهي تبدو كأبي الهول الذي يحرس الزنزانات التي ترك فيها هاينريش آثاره!

أحسست بإخفاق مهين إثر مغادرتي، وعزيت نفسي بأن لدىّ من الوقت لتفقد المحال التي قطنها جدي الأكبر ومارس بها نشاطه قبل أن يهاجر إلى القاهرة كما ثبت لي.

وبينما كنا نسير في طريق العودة، قابل رفيقي المرشد أحد معارفه. فالتمس منه المشورة في أمري، فأفاده بقصد جهة أخرى مختصة، فشرعنا في السير طويلاً عبر طرق مترية حتى وصلنا إلى تلك الجهة التي خبرنا عنها .. كانت في بهو ضخم يملأه آلاف من الكتب القديمة التي شغلت نصف المكان، ولم تكن على أرفف بل كانت متراصة فوق بعضها من الأرض حتى السقف، والنصف الآخر من البهو فراغ ممتد حتى مكتب يجلس عليه رجل مسنّ يحتسي شايا وأمامه كرسيان، دعانا ببشاشة للجلوس، وكان يتحدث الفرنسية بطلاقة .. أبدى اهتماماً بخطاب التوصية وبالورقة التي دونت فيها بيانات الزمان والمكان والعمل حين كان هاينريش بمصر، وكان تدويني مطابق لما توصلت إليه بعد.

قام الرجل بالبحث اللازم عن الوثائق المجدية لما أبتغيه، ثم بادرني بما توصل إليه، بأن الشخص الذي أبحث عنه – جدي الأكبر – كان يعمل موظفاً أوروبيا في عهد الخديوي سعيد باشا وإسماعيل باشا، ثم فاجأني الرجل بسؤال:

– ماذا تعرف عن كلا الخديويين؟!

اندهشت من السؤال إلى درجة التلعثم في الإجابة، وأعددت السؤال يمثل امتحان يتوقف عليه الحصول على معلومات عن هاينريش المصري! . . قلت:

– ما أعرفه أن سعيد باشا كان يدرس الفروسية منذ حداثته عند فرديناند دليسبس الذي كان نائباً للقنصل الفرنسي بمصر، وأعرب سعيد عن عرفانه وإخلاصه لـ دليسبس فيما بعد عند اعتلائه العرش، وأيد مشروع قناة السويس وأبدى استعداده لتنفيذه.

استحسن الرجل ما عرضته من معرفة، وسألني إن كنت أعرف شيئاً آخر عن سعيد باشا، هيئته وشكله؟ فأجبته بالنفي . . فزودني بمعرفته أن سعيد كان نهماً مفرطاً في الطعام وبلغ وزنه مائتي كيلو جرام . . ثم استطرد للحديث عن إسماعيل باشا، وسألني ماذا أعرف عنه؟! . . فقلت:

– حسب ظني أنه كان ذو لحية حمراء كثة. . . . وهذا يكفي!

أخذ الرجل – أمين المكتبة أو موظف قسم المحفوظات– ورقة بيضاء وكتب عليها بسرعة بالعربية وصفاً لحالتي، وسلمها إليّ قائلاً إنها نسخة من البيانات المطلوب البحث عنها عن هاينريش بلوتشيلي المودعة بقسم المحفوظات . . وصرح الرجل بعد أن وقف ماداً يده ليصافحني بأني نجحت في الامتحان، ويسمح لي بدخول القسم حيث يحق لي البحث عن الوثائق والمحفوظات!، ولم يتردد

الرجل في مصاحبتي إلى صالة القراءة ورحت أردد في نفسي:

– هاينريش . . أنا قادم!

كانت الصالة تشبه صالات المصانع ذات أرضية مرصعة بالحجارة، وحوائط خرسانية مطلية بلون أخضر فاتح، وعلى طول السقف تمتد مواسير التدفئة بلونها الأحمر الصدئ. . أما الهواء والضوضاء فيعبران من خلال نافذتين ذاتا قضبان متقاطعة، والأثاث مكون من اثنتي عشرة منضدة محاطة بكراسي معدنية أيضاً . . أخذت أحصى الحاضرين بالصالة، فوجدتهم ثلاثة من المطالعين، وخمسة موظفين رجالاً ونساءً جالسون على المكاتب المعدنية . . تبين لي أن سيدة تحمل رضيعا على ذراعها كانت لها اختصاصات هامة، لذا قصدها مرشدي وتحدث معها وسلمها الورقة. . كانت مجتمعة مع الموظفين الآخرين لمناقشة أمور بشأن العمل، وحاول صاحبي أن يترجم لي بعضاً من تلك الأحاديث ولكني لم أفهمه، إذ لم يكن أحد من الموظفين يتحدث لغة خلاف العربية . . عندئذ صرحت لصاحبي بأن الأمر سيكون يسيراً حين تكون البداية هي الفترة الأخيرة من حياة بلونتشيلي، لأنه كان أثناءها وكيل مكتب وزارة الأشغال العامة بالقاهرة وهى الفترة التي تبدأ من سنة ١٨٧٨.

انضم لصحبتي في دار المحفوظات ذلك الرجل الذي تعهد بمساعدتي للوصول إلى معلومات عن هاينريش، واتضح أنه لم

يرشدني إلى شيء مفيد، إلا أنه كان يعاملني معاملة طيبة لم أجدها من أحد من طاقم الموظفين . . اصطحبني إلى إحدى المناضد وطلب منا الانتظار.

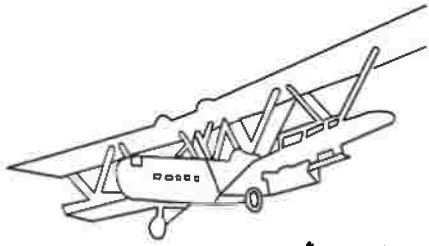

انتظرت حتى كدت أتجمد من تيار الهواء البارد، فجلست على منضدة أخرى بعد مرور خمس دقائق إلا أن تيار التدفئة أزعجني أكثر من التيار البارد، فلم أجد مفر من الرجوع إلى المنضدة الأولى، وكان على تحمل برودة التجمد . . عثروا على اسم هاينريش في إحدى محاضر البرلمان (مجلس الشعب)، ومن ثم كنت متطلعاً لوجود معلومات من هذا القبيل، فلم أجد غضاضة من الانتظار حيناً آخر أخذت خلاله أحصي المصابيح الفلورية المدلاه من السقف، كانت ستة وثلاثين مصباحاً منها أربعة عشرة عاطلة . . ثم تحولت إلى تأمل الطنفسة المنبسطة على الأرض والكراسي المنجدة .

حوالي ساعة من الزمن حتى هرعت سيدة مسنة تسرع الخطى وهي ترتدي تنورة زرقاء تمتد نحو الأرض، كانت تحمل فوق رأسها

علبتين ورقيتين لتقدمهما لي، ولدهشتي لم تكن بالعلبة أوراقا مزورة بل مستندات وزارة الأشغال العامة، تاريخ تحريرها صحيح ومحررة بالفرنسية . . شرعت في مطالعة الأوراق، كان أغلبها مراسلات الوزارة. . استمرت مطالعتي ساعتين لم أعثر خلالهما على أية آثار ولو نزراً، وأخذ البرد يتسرب إلى أطرافي فدفعت العلب للأمام ألتمس أوراقاً أخرى، في الوقت الذي حلت مكان السيدة ذات الطفل الرضيع، سيدة أخرى مسنة ترتدي نقاب رأس أبيض وأسنانها سوداء، لتكون الموظفة المختصة بالمحفوظات والوثائق . . ولم تعرف القصد من طلب تلك المستندات، ولم أتمكن من إفهامها إذ اختفت الورقة التي كان عليها بيان ما أبحث عنه، ومضى أيضاً الموظف المصاحب الذي تولى مساعدتي، فذهبت أشكو خطبي بنظرات الأسى لأولئك الموظفين الذين يعرفونني، ولكنهم لم يبالوا، وقسمات وجوههم يرتسم فيها عدم الاكتراث!

وقفت في الممر أحاول سحب ساقيّ المتجمدتين، دخلت المرحاض وأشعلت سيجارة أدخنها، ولكني لم أتمكن من استعمال المرحاض لانسداد المجاري، واندهشت لأن أحداً لم يستحثه ذلك الانسداد لعمل شيء لإزالته. . غريب ذلك السلوك اللامبالي!

فكرت في تلك اللامبالاة وفي تحقيق هدفي من البحث عما أبحث عنه، حتى ساورني ارتياب في جدوى مسعايّ، وأن الأمل في تحقيقه كالأمل في إزالة انسداد المجارى.. لا بارقة له!

حين رجعت إلى صالة القراءة وجدت السيدة التي تحمل الرضيع وصاحبي المهتم بشأني، فتفاءلت خيراً.. وبعد ساعة انتظار أحضر العاملون خمسة مجلدات ضخمة على منضدتي، فأقبلت على قراءتهم بنهم.

كانت كلها كشوف وبيانات حسابية وأرقاماً.. ولعل تلك المجلدات تحوى سجلات المبالغ الطائلة التي اقترضها الخديوي إسماعيل باشا - نائب السلطان- من البنوك الأوروبية، إلى أن أصبحت مصر على وشك الإفلاس، فطلبت حكومات تلك البنوك من السلطان التركي بالقسطنطينية إقصاء ذلك الوالي المبذر!.. آنذاك كان هاينريش الصديق الوفي الذي باع جزءً من أملاكه لمساعدة الخديوي إسماعيل للخروج من أزمته، وكان ذلك ما كتبه ابنه تشارلز في مراسلاته لجدتي.

كان هاينريش مستشاراً لإدارة ملاحات السويس وهي ضمن أملاك إسماعيل باشا، وللخروج من أزمته تم بيعها إلى شركة إنجليزية - شركة السويس بورسعيد للصودا والملح - مسئولية محدودة، التي اشترتها بثمن بخس، وكان هاينريش معارضا لذلك السعر الزهيد،

مما يشير إلى وجود مستشارين ومساعدين لدى إسماعيل باشا غير هاينريش، ووجودهم يعني أن تلك الصفقة سوف تتسبب في خسارته لمنصبه واضطراره للنزوح إلى القاهرة . . لم تجد الصفقة نفعا لخروج الخديوي من أزمته ولم تجره من الإقصاء والنفي إلى نابولي، ومع ذلك ظل هاينريش مخلصاً له محافظاً على الولاء والود، وكان من البديهي أن يكون هاينريش ضمن المودعين للخديوي إسماعيل في صباح الاثنين الثلاثين من يونيو ١٨٧٩، وكان مقرراً أن يقف بجانب زمرة الحريم المتشحات بأرديتهن السوداء . . بيد أن هاينريش لم يرد اسمه في المجلدات الموضوعة أمامي.

الفصل السابع

قصدت مطعم فلفلة وطلبت زوجاً من الحمام المشوي، فذلك المطعم يحظى بثناء وإشاد به في كل دليل رحلة عن مصر، وهو متخصص في الأكلات المصرية الشهية.. أزعجني ما عرفته عن قتل الحمامتين وترددت كيف سأتناولهما ؟! بعد اليوم الحافل الذي قضيته في الأرشيف العام ظننت أنه بتناولي الحمامتين وزجاجة النبيذ "الروز"المصري سيمكنني أن أعوض لنفسي عن فظاعة وبشاعة هذا اليوم بشيء خاص ومتميز.

كان الكازينو حافلا بأفواج السائحين، فبرامج رحلاتهم كالمعتاد ترشح زيارات اختياريه لذلك المطعم المصري، ومن دواعي سرور السائحين أولئك العاملون والنادلون بالمطعم وهم يرتدون ملابس بيضاء، وتلك البطاقة الصغيرة على الموائد التي تعلن عن أن الهدف

هو أرضاء العملاء، وتدعوهم إلى كتابة أرائهم عن مستوى جودة الأطعمة والمشروبات والخدمة (جيدة-عادية-متوسطة) . . طلبت زجاجة من الخمر المصري وأخذت أتأمل بقرب شلال صناعي هادر تتساقط أمواجه على صخور صغيرة مكسوة بخضرة الطحالب . . كان عليّ الانتظار قليلاً حتى أتمكن من دخول دورة المياه، الكارثة أنه قبل ذلك في الأرشيف العام كادت مثانتي أن تنفجر، لكن المجموعات السياحية لها أولوية الدخول إلى الحمام . . أخيراً أحضر النادل الخمر المحلية، كنت قد جربت من قبل في مكان ما في هذا العالم خمراً محليا، وكان كان بوسعي أن أكتفي بتجربتي الأولى وأن أعرف أنني سأصل إلى نفس النتيجة وهي أنني أطلب خمرا لذيذاً، وأحصل على نوع من خل الطعام! ولكن كيف يمكننا أن نستمر في العالم دون إعطاء الفرصة لتجريب كل ما هو جديد، حتى نتجاوز إحباطات الماضي.

طلبت بيرة وسألت النادل عن مصير الحمامتين المشويتين، وأدركت أننا نحن الأوروبيون في حاجة إلى التريث والصبر، خصوصا أن النادل بدأ وكأنه يسمع لأول مرة أنني طلبت حمامتين، بل ونسي في لهفة تلقيه ذلك أن يحضر البيرة، وبعد قليل وضع النادل أمامي خبزا مستديرا ومفرطحاً، أخذت في تناوله بنهم، ثم أحضر الحمامتين

وكانتا في الواقع بلا لحم، صلبتا العظام ولونهما أسود، أخذت أطرق عليهما بالسكين والشوكة في شوق للنفاذ إلى الأحشاء ولكن ذلك لم يجد نفعاً بدون الاستعانة بالخبز المفرطح.

سمعت كالمعتاد في الطريق إلى الفندق تحية الترحاب والاحتفاء بالضيوف والأصدقاء، ولم يكن من المستطاع تحاشي الأيدي الممدودة التي تصافح بقوة وضغط ومن قبل الحفاوة والترحاب. لا يفتأ نزلاء الفندق السؤال عن جنسية أصحابه . . تحدث أحدهم بالفندق معي بلهجة ألمانية سويسرية سيئة وقال أنه أيضا كان في سويسرا، ولكنه للأسف لم يلتق بي، وهنا أظهر رغبته في دعوتي على الشاي وإقامة أواصل الصداقة بعد ضياع فرصة لقاءنا في سويسرا ! واضطررت لقبول دعوة لاحتساء الشاي بالنعناع في ظل التأكيد على غياب أية أغرض أو مصالح تجارية والتعرض لنصائح وطرق التعامل مع النصابين والتجار الجشعين. . هكذا اصطحبني عبر بعض الحارات في الطابق العلوي داخل محله الخاص لبيع العطور الذي كان محاطاً بقماش من القطيفة ذات لون أحمر غامق، وتوالت مشروبات ضيافتي، واكتشفت بعد حديث مشترك عن أمور مختلفة عن مهمتي الوظيفية بالحديث عن هاينريش، وسألني النادل صاحب العطور إن كنت أعرف باتريك زوسكند، فأجبته بالنفي، فاستطرد قائلاً أن باتريك صديقه وعميله، وقد أقام هنا مثلي وتعلم منه

العطور، تذكرت عندئذ مقولة "الشرق مهد الشعر" وإن كنت لا أصدق هذا !. . وبعد مرور ساعة أخذ أحد العاملين في المحل في لف زوجين من قوارير العطور في هدوء، وأخذ في الحديث فانتبهت إلى الكفاءة المغرية عن زوسكند ليست إلا دعاية وتسويق للشراء !. . وحتى إن كان زميلي في المهنة وصاحب الشهرة العالمية التي يتعطر بشذاه رواد هذا المحل، فليس عليّ أن أحذو حذوه وأن أرى أن شراء العطور من اللوازم التي لا غنى عنها في إدراك شهرة عالمية، بل مبلغ القول أنها للتهادي والمجاملة، سألني في نبرة غليظة إن كان لدي زوجة أو صديقة جديرة بها الحصول على هدية من مصر. . أم أنني سأندم على ما أنفقه من مال، لكنني لست مما يهدي العطور ولا أرى داعيا إلى استخدامها في حياتي لنيل شهرة عالمية أو لإرضاء زوجة أو صديقة . . غمز لي بعينه بعد أن أشار إلى نوع خاص من العطور يمكنني أن أهديه لها وسيكون له تأثير ساحر عليّ ثم وضع قليلاً من العطر ودعكه على ظهر يدي، وقد تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل وشذى العطر يفوح من ظهر يدي بل يتجاوزها حولي . . كنت متعباً والإرهاق يضنيني ولست مستعداً لأن أوصف بالجنون إن قمت بالشراء على غير إرادتي فنسيت إبرام صفقة الشراء وصرفت النظر عنها وعيني غافلة على نحو يغاير عين صديقي المضطربة المعتادة على كرم التهادي!

أردت الصعود في الفندق على الدرج ولكن فتح لي أحد العاملين باب المصعد وأخذني لأعلى وكأنها مبادرة شخصية منه . . كان المصعد المتين ماركة شيندلر صنع سويسرا ويفوح فيه شذا العطر وأريجه . . سألني العامل إن كنت سعيداً هنا بهذه الأمسية، فأجبته بما يوافق الحقيقة:

– المستوى كان دون المتوسط

منحته بقشيشاً واتجهت إلى الغرفة . . استيقظ نادل الطابق من غفوته وكان جالساً على مقعد، وأسرع بأخذ المفتاح بلطف مني وفتح لي باب الغرفة فقمت بإعطائه بقشيشاً وطلبت منه زجاجة كوكاكولا، وحين أحضرها لم أكافأه ثانية، إلا أنه ظل واقفاً في الغرفة وهو يتطلع لأداء خدمات أخرى، وإذا به يكتشف رماداً بجانب منفضة السجائر، فأسرع بإخراج منديلاً ورقيا من جيبه وقام بإزالته وإلقاء المنديل بسلة المهملات، فما كان لي إلا أن أدفع في يده ورقة نقدية وأنا حانق من الغيظ من ناحية ومن باب العطف والإشفاق من ناحية أخرى . . وبعد أن مضى لحال سبيله أخرجت زجاجة ويسكي من صوان الملابس وذهبت بها إلى سريري لأتأمل في أحوال اليوم المنصرم، فلم أجد أني حققت غاية في أثار هاينريش، ولم أستمتع بالحمام المشوي!

لا يفوتني كل أمسية أن أطالع في تلك اللوحة المعلقة على باب دورة المياه وهي مكتوبة بلغات عديدة . . يتطرق ذهني إلى جمال اللغة الألمانية وأنا أقوم بتنظيف أسناني، واستغرقت في تأمل كلمة "الإنذار"، فكم من التعبيرات الألمانية الجميلة التي قرأتها في ذلك الإعلان الذي يتغير يومياً في الغرفة وهي تصف الإجراءات الواجب القيام بها في حالة اندلاع حريق، ولم يكن الباعث على قراءتها تخوفي وحذري من وقوع شيء بل لتمتعي بالصياغة اللغوية في نظم الشعر الألماني الرائع . . وصف النص المكتوب بالسويسرية الألمانية خطوات التعامل مع الحريق، وكانت بعض كلماته مصححة بطريقة مزعجة بلون أحمر الشفاه كالتالي: "الإنذار التليفوني والإبلاغ عن الحريق وشد إنذار النيران الذي يحدث دوي عالي"، لأبد أن أحد قاطني غرفتي كان من السويسريين، شخص عادي من أبناء بلدي، بدأت استوعب أسباب هروب هاينريش إلى مصر . نمت في السرير وبدأت في النعاس واصطحبتني كلمتان: صوت إنذار وحريق .

ارتديت في اليوم التالي ملابس ثقيلة لمقاومة البرودة في مبنى الأرشيف العام ولكن عبثاً ! فما فعلته لم يفد بشيء لسببين: أولهما أن رياحاً رملية ساخنة هبت على المدينة والثاني أن مدير الأرشيف لم يسمح لي بالدخول، خصوصاً أن خطاب التوصية الذي كان معي اختفى في مكان ما داخل المبنى الضخم، وخطاب مسئول

الأرشيف أو المكتبة- لا أدري- لم يؤدي إلا للوصول لبعض البيانات المتواضعة باللغة العربية عن هاينريش أعطاها دون اكتراث حارس المبنى وهو شخص جديد غير الأخر الذي قابلته بالأمس، أما اسم الشخص الذي منح لي هذا الترخيص بالدخول فقد ضاع من ذاكرتي تماماً، وأصبحت عاجزاً عن فعل شيء، سوى كتمان رغبتي في العودة إلى هنا في أسرع وقت ومعي حزمة من أعواد الديناميت الناسفة.

الشيء الذي بدد حنقي وغضبي لعجزي عن الظفر بإفادة عن هاينريش هو قصدي للمتحف المصري الممتلئ بكم ضخم من الآثار المبهرة، هذا المتحف الذي شيد في الأيام الأخيرة من حياة هاينريش، . . بل وجدتني أستمتع بهبة ليوم رائع . . يزوغ البصر حين يحاط بحشد هائل من الآثار وهو ينشد الفحص والتأمل، وتقرّ العين من الإمعان في النظر، فلا مفر من فحص كل أثر على حده . . وبعد تجوال ساعات طويلة في تاريخ مصر، جلست مترنحاً مستلقياً في حديقة المتحف ولا أكاد أفيق من النشوى، فإذا بي أرى غرفة أخرى للعرض يغشاها الظلام وبها أحد عشر تابوت من الزجاج يحوي مومياوات، وأخذت في تأملها من تابوت لآخر ورويداً رويدا أخذ الدهش يغمرني ويسري في وجداني، ليس من وجه الملك سيتي بإطلالته المتغيرة، ولا من وجه رمسيس الثاني العابس، بل من

كيف سلمت الإحدى عشر مومياء من التحلل، وهي تضحك على قولنا المأثور بأننا من التراب وإليه نعود !

أحسست برجفة أقشعر لها بدني حين سمعت كلمات زاجرة من ملاحظ الآثار وهو يعنف زائرين متهامسين ويدعوهما بالتزام الهدوء، وتوقفت عند تحتمس الثاني من الأسرة الثامنة عشر أتمعن في أظافر قدميه التي تبدو لامعة كأظافري وإن مضى عليها ثلاثة آلاف عام وخمسمائة، تركت في وجداني أثراً نافذا . . قلت لنفسي وأنا أجلس على مقعد في حديقة المتحف وأسترجع زيارتي "سوف أنسى التماثيل الضخمة اللامعة ولكنني لن أنسى الأظفار أبداً"

الفصل الثامن

كانت قرية ريتشرفيل قرية ثرية خلافاً لقرية أوردورف، وندرك ذلك من المنازل الفاخرة، والمطاعم والمقاهي ذات المستوى، والشوارع المتسعة والحدائق المنسقة والزاخرة ببدائع الزهور . . وإن لم تسلم قرية ريتشرفيل من ركام الروث والمخلفات، إلا أن فخامة أبنيتها طغت على ذلك الركام وكبحث ما هو بادي بقرية أوردورف، كان البط والإوز يلتهم مخلفات المجازر التي يتخلص منها القصابون في خليج القرية، فكانوا يسارعون في محو مكدرات القرية، كما كانت توفر الأغذية لمتعة سكانها الموسورين لينعموا بالترف والبهجة.

ويدخل في زمرة هؤلاء الموسورين من السكان، السائحون النزلاء القاصدين للعلاج بحمامات الاستشفاء، كما أغرى عبق ريتشرفيل الراغبين في العلاج النفسي كحالات الاكتئاب، بالتنزه سيراً على ضفاف البحيرة بملابس أنيقة لوجوه عابسة!

وأخيراً أطلت منازل الفقراء دون مستوى الرغد الذي تنعم به القرية . . وقد تدفع حالة الفقر إلى التسول على ضفاف البحيرة التماساً لعطف المكتئبين المرضى . . هؤلاء الفقراء يقطنون في القرية والمنتجعات المحيطة بها ويزيدون من إحساس الأثرياء بالثراء والنعيم

بفضل تواجدهم. . وكم أجتهد هؤلاء الفقراء للخلاص من همومهم بعملهم أو عمل أولادهم في مصنع غزل القطن أو مصابغ المنسوجات.

وماذا عن هاينريش؟ ! . . هل كان منطوياً على نفسه ولا يتصل بذويه وإن كان كل ما يحيط به يوحي بقدر الرقي والنباهة، صحيح أنه كان يعرف كثيراً من أصحاب مصانع وكثيراً من أبناء جيله، إلا أنه كان يعرض عن التعامل معهم والتقرب إليهم، ويرجع ذلك إلى اعتزازه بنفسه ولشعوره بالخزي أن يكون دون المستوى، وهو لا يملك كسب القليل، كما أنه كان لازم عليه أن يوفي بقضاء ما على أمه من ديون اقترضتها لتتولى تصريف أموره . . كم كان يتأمل حالة البؤس وهو جالس في غرفته المثلثة الشكل فوق السطح، فقد كان سكنا رخيصا، من المفترض أن يطرأ على حالة قدراً من التحسن لكنه ظل فقيرا معدماً، ولم يثنيه حاله عن أن يراوده الحلم بالثراء حيث كان يهم ويجتهد بعزيمة الطامح للرفعة وعلو الشأن بعد أن كان يميل إلى الخمول والكسل. . آنذاك أخرج ماله المدسوس بأسفل حاشية نومه القشية في صندوق صغير وفيه عملات رومانيه عثر عليها هاينريش حين كان يلعب وهو صبي، كان من المفترض أن تخص هذه العملات مقاطعة زيورخ، لذا لم يجرؤ على بيعها هنا، لكنه كان ينوى الذهاب إلى باريس حيث يوجد الكثير من المشترين، ومن باريس يتأهب

للعودة محملاً بأقمشة من القطيفة والحرير. . كما أنه لم يزل مساعدا متدربا في مصنع صباغة المنسوجات القطنية "هورليمان"، وبطموح وشغف أخذ في التعلم للقيود المحاسبية وأجادتها، لهذا لم يكن هناك أي داعي للنظر للأمور بهذه الحالة من البؤس.

في أحدى الزيارات التي قام بها لزيارة أمه استقل قارباً بخارياً قطع المسافة من ريتشرفيل إلى زيورخ في ساعتين، وقد أعتاد ركاب الدرجة الثانية أن يختلطوا بركاب الدرجة الأولى في الجزء الخلفي من السفينة دون قصد، وفي هذا اليوم فعل هاينريش نفس الشيء حتى مثل أمامه في ذلك اليوم أحد العاملين في السفينة، وكان رجل قوي البنيان ذا عينين جاحظتين وصوت رخيم، قال بصوت يكاد يصم الآذان:

– لقد أصبح الأمر فوضى . . أنا المدعو تايشلر، أرجو من الجميع إبراز تذكرة السفر.

دفع هاينريش بخجل فرق الدرجة ومقداره ستة عشرة باتيستا حتى يتمكن بالبقاء في الجزء الخلفي من السفينة، إلا أنه ما لبث حتى آثر الانسحاب خلسة بخطوات مسرعة أكثر من المعتاد، مما أثار ضحكات ركاب الدرجة الأولى الساخرة، التي لم تبارح سمعه طوال ذلك اليوم بل طوال أيام عمره! . . وما كان هاينريش لينسى هذا البحار من ريتشرفيل باسمه الكامل يعقوب تايشلر، والذي جعل له في

سره اسماً بذيئاً . . كان يقابله في رحلاته، لكنه ظهر في حياة هاينريش في شأن ليس له علاقة برحلة السفن سيتم ذكره لاحقا وذلك عندما كان هاينريش في مصر، وقد أفزع هاينريش ذلك مما ترك أثراً خاصاً في العلاقة بينهما .

حين كان يزور أمه ويقطع الطريق من زيورخ حتى دينتيكون حيث كانت تقطن في منزل القس بعد رحيلهما من أوردورف، وقد أعتاد أثناء سيره مترجلاً على قدميه التفكير فيما يجري من أحاديث معها، ولحسن الحظ كانت أمه متحدثة لبقة أكثر منه، لذا كانت تزيل عنه التوجس من عجزه عن الكلام، كما كانت تزيل عنه ما كان يساوره أثناء طفولته، فحين زارها أدركت ما كان ينازعه في نفسه من مشاعر الوجد، وفهمت أنه يعايش حالة من هيام المحب، لذا بادرته بالسؤال دون أن يومئ لها بشيء عن اسم فتاته، فأجابها بتردد : إليزابتا أو إليزا، فقالت له أمه أنها أيضاً اسمها جريت وإن كانت تدعى مارجارتا، وراودته أمه أن يحادثها عن تلك الفتاة، إلا أنه أثر الصمت، عندئذ صرحت له أمه بغرامه بها ولم تعد تسأله عنها بعد ذلك.

شاهد هاينريش إليزا في لحة عابرة بعد دخوله في أحدى المرات لغرفته الصغيرة الواقعة فوق مبيت رابن ومنها كان يطل على بيت الخباز يوهانس المصنوع من الأعمدة الخشبية وجدران من الطوب،

وتبلغ المسافة بين غرفة هاينريش ومنزل إليزا حوالي مائة متراً . . لقد قمت بفحص طول هذه المسافة بنفسي حيث لا يزال البيتان موجودان حتى يومنا هذا . . قد يغض المرء النظر عن أهمية مشهد كهذا، لكن نظر هاينريش إلى تلك الفتاة الشابة حين وقفت في نافذة غرفتها المفتوحة لتضفر شعرها . . نظرات عابرة وقد تحكم نظرة كهذه حكماً مصيرياً على كيان إنسان، كما كانت حكماً مصيرياً على حياتي ووجودي وحياة هاينريش وحتمت عليه الذهاب السريع إلى المخبز . . وهناك اندلعت شرارة الحب، ولم تستشف إليزا من هيئة هاينريش هيبة القوة البدنية بل كانت عيناه البنيتان تفصحان عن حزن ووجد شديد، تبادلا النظرات فرآها هاينريش رغم قوامها الممتلئ على قدر لا بأس به من الجمال، لقد رأى عينيها الزرقاوتين فائقتي الجمال.

كان الناس يتوافدون فرادى طوال الوقت إلى هذا المخبز حيث تعمل إليزا، لذا كان من الأفضل أن يلتقيا بالخارج في الأسواق السنوية، بعدها كان الاثنان يلوحان لبعضهما البعض من غرفتيهما، وفي مساء ذلك اليوم بالتحديد العاشر من مايو عام ١٨٤٤ وجد إليزا ولأول مرة واقفة أمام بابه، وتحمل سلة حافلة بكل أنوع المخبوزات مع تهنئة بعيد ميلاده العشرين . . وبعد ثلاث دقائق تركت له السلة ولم تلبث أن انصرفت وسط دهشة هاينريش واضطرابه فلم يتمكن من

إيضاح خطأً لم تدركه إليزا، فقد كان يوم مولده هو التاسع عشر من مايو وليس اليوم العاشر، ولكن تلك الزيارة الحميمة جعلته يتجاوز الأمر، بل ظل يحتفل بعيد ميلاده حتى نهاية حياته بكل سرور معتبراً يوم العاشر من مايو يوم مولده! . . وقد عثر على بطاقة بريدية كان هاينريش قد بعثها إلى حفيدته في اليوم الثالث عشر قبل وفاته بالقاهرة وبطيها تلك العبارة:

"تحياتي القلبية أبعثها إليك في يوم عيد ميلادي السابع والسبعين متمتعاً بصحة جيدة" . . . جدك هاينريش

وتحمل البطاقة طابع بريد من القاهرة بتاريخ ١٠ مايو . . أما تاريخ ميلاده وتعميده الحقيقي فكما سجله أبوه بخط يده بسجل كنيسة اوردورف الذي يضم المعمدين، فهو يوم التاسع عشر من مايو سنة ١٨٢٤ . . نفهم من ذلك أن هذا التاريخ هو يوم مولده، ومن أجل إليزا سبق يوم العاشر من مايو مولده الفعلي بتسعة أيام.

لم ينقض وقت طويل حتى تسلم اليزا لـ هاينريش شيئاً أكثر من يدها، وإن بدا في الأفق أن زواجهما لن يتحقق إلا بعد انقضاء زمن بعيد، فهو حقاً ينتسب إلى سلك القساوسة وسيرة حياته تنبئ بمستقبل مشرق، إلا أنه يلزمه تحقيق فعليّ لمكانة رفيعة ومنزلة حتى يتزوج فتاة ميسورة . . ، ولكن أم إليزا لم تدخر جهدا لمساعدته، وكشف أبوها عن ثرائه ووجاهته، ليس بعمله خبازاً بل كاتباً في

مجلس القرية، فلم تمضى أشهر على عيد ميلاد هاينريش العشرين حتى تزوجا، وكان دوق مدينة شتخنهايم ضلعاً غير مباشر في تحقيق هذا الزواج.

اعتاد هاينريش على ارتداء القطيفة والحرير حتى أصبح مظهره فخر سكان القرية والقرية المجاورة فيدنسفيل وبدا وكأنه يحترف تجارة الحرير، وقد غرر بالسكان بزلف ودهاء ليخفي حقيقة أنه مجرد صبى خياط، بل أخذ سكان ريتشرسفيل يصورون تلك الوقائع بأسلوب شاعري في قالب تمثيل هزلي شعبيّ ليعرض على سطح السفينة ليضحك الجميع مع هاينريش وإليزا.

ابتهج هاينريش وتأثر بالمسرحية، وسرت في بدنه سخونة الهوى بالرغم من الطقس البارد، وما أشد تلك الحمى التي استعرت في بدنه ليتيقظ ذهنه بتلك الفكرة القائلة بأن كل نجاح يتوقف على أسلوب وطريقة العرض.

دعا هاينريش إليزا للتنزه بعد العرض، وبعد استمتاعه بعصير الليمون الذي قدمه له نادل مقهى انجل في الميدجان وكان ذلك العصير نوعاً جديداً من المشروبات آنذاك، تغافل هاينريش عن السؤال عنه رغم استمتاعه به . . وافقته إليزا ثم توجهت بعد ذلك العرض إلى أخوتها، وكان اثنان من الأربعة إخوة على مقربة منها، فتخبرهم بأنهما ذاهبان للنزهة، وكان الحين نهاراً لا جليد فيه،

ولكن البحيرة كانت تغطيها طبقة من الجليد في منطقة الضفة عندما سار وإليزا على طولها في اتجاه خارج القرية . . لم يقابلهم أحد، فجلسوا بين مصنع تلوين وصباغة القطن ومنزل الفقراء على منطقة حجرية، إلا أنها كانت ذات برودة شديدة فما لبثوا أن هبوا واقفين يتعانقان ويسأل كل منهما الآخر إن كان يشعر بالبرودة؟ !، ولكن سرعان ما تدفق الدم إلى شفاههم فزال عنهما الإحساس بالبرد، وأخذا يتنافسان على قدرتهما على السير على الجليد، إلا أن إليزا توقفت حين لم تقو على مسايرة جدي الأكبر الذي كان سريعاً في عدوه وجسورا على خوض تلال الجليد، ووجدت جدتي على رأسها طبقات من الجليد . . كانت جدتي إليزا أكبر من جدي لذا كانت دائما ما تسعى إلى حياة كريمة مستقرة .

وقبيل نهاية زمن هاينريش وقع حادث في ليلة الرابع والخامس من مارس ١٨٤٦، حين كان يجوب بحثاً عن حانة ليحتسى فيها الخمر، حتى عثر على حانة الملوك الثلاثة، فارتادها ليعاقر الخمر المسكر الذي دفع به إلى النعاس والغفلة، وحين لعب الخمر برأسه أخذ يستهزئ بمن حوله ثم جنح إلى السخرية من النساء، وقد قاربت الساعة الحادية عشر موعد إغلاق الحانة، فأخذ هاينريش الحال وهو يصيح بمدى صوته يعلن عن أسفه الذي أثمرته خبرته بأن الناس صنفان لا ثالث لهما: الصنف الأول مطيع خاضع والثاني متمرد

عاصي، ومحال أن يرضى إنسان مثالي عن هذين الصنفين . . فأخذ الحاضرون في التصفيق تأيداً واستحساناً، وما لبثوا حتى شحبت وجوههم إثر سماع فوجلى النادل بالحانة وهو يهرع إلى الغرفة السفلية منذرا باندلاع حريق في كازينو الرابة:

– الرابة تحترق . . الرابة تحترق . .

وانطلقت أبواق إنذار الحريق مدوية لتبدد السكون الذي كان سائدا من قبل، فهب الفتية السكارى صارخين لبعضهم البعض:

– هلموا إلى الجرادل.

وهرعوا مسرعين للنجدة وأداء الواجب، فاختفوا في الظلام وهاينريش يحاول أن يتبعهم ولكن ساقاه لم تسعفاه، فجثا عندئذ على ركبتيه في ممر حانة الملوك الثلاثة– الذي يسمى حاليا ممر تشوبنج ويؤدى ذلك الممر إلى شارع القرية وفيه يقع مطعم وكازينو الرابة – ثم تقيأ وهو يسمع أنين الأعمدة الخشبية تحترق، وحين هب واقفاً رأى ألسنة اللهب وأبصر في مخيلته منزل اليزا تلتهمه النيران، فلبث واقفاً خلف شجرة الهولوندر حينما اقترب من مسرح الواقعة، حتى تساقطت مجموعة عروق السقف من المنزل وهى متوهجة من النار حيث كان يسكن تحته.

انكفأ هاينريش على وجهه في هذه اللحظة من واقع قذائف اللهب القوية المنطلقة نحوه، محتمياً بفرق الإطفاء التي تركت الرابة في

سعير متخلية عن إطفائه، وحاولت بالجرادل أن تمنع امتداد الحريق للأبنية المحيطة، لاسيما منزل الخباز الذي كان معرضاً لخطر الاحتراق والاصطلاء الوبيل بسبب قوة رياح الجنوب.

رأى هاينريش رجل الإطفاء مغشياً عليه من الجهد فأبعده عن مضخة الحريق، وفي ذلك الحين أبصر على الدرج الخارجي للمخبز ثلاث سيدات يمسكن بمكانس، فسلط عليهن المضخة لمساعدتهن هو يظن الدرج يحترق . . اندفعت إليزا لتعانق هاينريش بحنين وشوق، بعد أن تركت المكنسة ، فقد ذهبت إليه وعانقته في منتصف الدرج الخشبي، فقد ظنت أنه قضى نحبه في غرفته كما انتشر الخبر بذلك . . التقى الزوجان على الدرج الخشبي - وهو الآن قد أصبح درجا حجري - لقاءً وجدانيا حاراً كأنه لم يحدث آنفاً، ولكن أخت إليزا غضبت وألقت من أعلى بالمكنسة المصنوعة من قش الأرز والتي استخدمت لإطفاء الحريق، وعنفت هاينريش موبخة إياه أنه يلزم أن يفعل ذلك في مكان آخر أكثر لياقة للعواطف والحميمية!

ظل هاينريش يضخ الماء للإطفاء حتى الصباح ولا يفتأ عن تشغيل المضخة ليندفع الماء للإطفاء، كما كان يقوم بمهمة نقل الماء بالجرادل لتبريد واجهة منزل إليزا، وحين أسفر الصباح ونجا الجمع المتواجد خارج كازينو الرابة، كان هاينريش متسخا بالرماد . .

وحين ذهب إلى عمله أثنى عليه رئيسه هوترليمان ومنحه على حساب الشركة غرفة صغيرة في كازينو الملاك انجل، كما وهبه حلة عوضاً عن ملابسه.

لا شك أن ما فعله هاينريش كان مدعاة للإطراء والاعتراف بمروءته وشجاعته، بل إن رئيسه أحس أنه لا شيء بالنسبة لـ هاينريش فكان يساوره هذا الإحساس، فإن قيمة الإنسان تقاس بقدر عمله ومن ناحية ثانية فقد تم إعادة تشييد كازينو الرابة بالدينارات الفضية التي كان يصهرها هاينريش والعملات النحاسية الرومانية، أي بفضل هاينريش وأمواله . . وهكذا ظلت العملات النقدية التي كان يخفيها مصونة من أسباب الضياع، فقد أهداها لحبيبته الغالية قبل الحريق، فظلت هذه العملات محفوظة مع مشط من العاج . . وقد منحت حبيبته هذه العملة لأبنها كذكرى من أبيه الغائب، وبدوره أهداها الابن لأبنته وهي جدتي، التي آلت لي بالوراثة، وهي قطع ذهبية من عهد نيرون.

الفصل التاسع

ورثت عن جدتي الكبرى إليزا كتاب فن الطهي، وهو كتاب ذو غلاف أسود ويحوى أربعمائة واثنتا عشرة وصفة طهي ومكتوب بخط اليد، بخلاف القصاصات المنفصلة التي أدخلتها اليزا داخل صفحات الكتاب . . وأرادت إليزا من هذه القصاصات التمويه على قصاصات أخرى سرّية سجلتها وأدخلتها داخل الكتاب، ونظراً لأنه لا أحد يتصور أن في كتاب فن الطهي أموراً سرّية، فلن يقدم أحد على البحث عنها، فكانت مخبأً مثالياً يخفى أموراً خصوصية، وقد أودعت جدتي الكبرى واحدة من تلك الأوراق بين صفحتي رقم ٦٨،٦٩ ، فعلى الأرجح أنها اختارت هذا المحل لاعتبار خاص وبعد تفكير، لأنها كتبت على الوصفة المذكورة في الصفحة ٦٨ بالقلم الرصاص هذه العبارة:

" هذه الأكلة التي يحبها هاينريش كثيرا "

ولما كنت أضع في الاعتبار أن الأكلة المطلوبة لشخص ما ربما تعبر عن أمر ذو شأن، فكانت تلك الأكلة المجهولة هي إوزة مطهية ومحمرة وبها حشو من خبز أبيض لين وقطع كبد ولحاء ليمون وبصل مقدوح في زبدة وكستايتٍ مسلوق، وهذا الخليط يوضع في الإوزة حتى الامتلاء ويخيط جيداً على هذا الحشو . . وبصرف النظر عن

الوصفة فوجود ورقة ملحقة بالوصفة يميل لونها إلى الاصفرار أمر ذو أهمية بالغة، قرأت عليها العبارة التالية:

باريس – الجمعة ٢٩ يناير ١٨٤٧

عزيزتي / إليزا الغالية

أبعث إليك تحياتي العذبة وأنا أحمل في نفسي حزن وكدر، وما يكدرني هو أنني في بلد أجنبي يوم عيد ميلادك، ولا أتمكن أن أكتنفك في قلبي حتى يسري دفئك في وجداني . . ولكم تصيب كل أعضائي رجفة وأنا أكتب لك مترجماً عن أشواقي الحارة . . لقد كتبت لي أنك قمت بإعداد جهازك وحياكته، كأنما أنا عديم المبالاة وفاقد للنخوة والأمر ليس كذلك، فعساك تتقين أنني أودع في جوربي شيئاً فشيئاً قدراً من المال أدخره من قوت فمي . . وليت الباعث على البعد والفراق قاصراً على طردي من خلدك، وما أسوء تلك الفكرة التي تطيح بكل أواصر الوجد، فأفقد الفؤاد الوديع الذي يتأسى ويصبر لهذا الوضع الأليم . . . . في هذه اللحظة دخل كارل الغرفة، فأخفيت الكتابة . . . وداعا يا فتاتي .

هاينريش .

وشاهدت هاينريش أمامي في شهر يناير تحت القمر المتجمد لمدينة باريس، عريس شاب مزعزع الإرادة يفتقر دفءً عاطفياً، لم يعمل كفاية بل كان موظفاً في بنك، لم يجرؤ أن يتحدث عن أشواقه

دون التنويه بالذكر إلى نشاطه وهمته وهو يتجلد بالحرمان متشوقا إلى الحب باحثًا عن ادخار ماله حتى تمتلئ الجيوب لضمان نيل تلك السعادة، لقد عرف أنه لا يستحق عروسه فقط بهبة قلبه الخالصة، لكن ظللت هذه الهبة وحدها تضايقه لا تنفع بشيء، خصوصا وأن إليزا تجعله يحس بذلك.

وأضطر هاينريش إلى السفر قاصدا فرنسا في أواخر صيف عام ستة وأربعين، كانت مديرية أمن زيورخ تجري تفتيشا على جوازات سفر الأجانب التي تحررها قنصلية الدولة ولم تسجل فقط بيانات الحاصلين على تصريحات السفر بل سجلت الخصائص والسمات البدنية لهم. .ونظراً لأداء مديرية أمن زيورخ في دقة تسجيل البيانات وحفظها ونعم إخلاصها في ذلك تمكنك من الاطلاع على سجل قديم مكتوب بالحبر الأسود ويرجع تاريخه إلى مائة وخمسين عاما ونقل البيانات التالية وقلبي ينبض بشدة:

"جواز سفر رقم ٧٢٦ ، التاريخ في الثامن عشر من أغسطس ١٨٤٦، اسم المسافر ووطنه : السيد/ يوهان هاينريش بلونتشيلى من مدينة زيورخ، الوظيفة: تاجر، العمر: ٢٢ عاما، الطول: خمس أقدام وست بوصات، لون الشعر: بني، لون العين: بني، لون حواجب العين: بني، الأنف متوسطة، الذقن: مستديرة، المكان الذي يعتزم الذهاب إليه: فرنسا .

لو كان هاينريش مطلوبا القبض عليه، فإن الشرطة بهذه المواصفات لن تصل إليه بسهولة وهاينريش نفسه لن يضطر للخوف أصلا من الوقوع في قبضة الشرطة، وحتى لو تم إعطاء تلك المواصفات اليوم للحاسب الآلي فأنه سيفشل في الوصول إلى بناء صورة محددة لأي شخص بهذه المواصفات، وصعبٌ من الوصول إليه أن الطول كان متوسط، فحسب الوصف يبلغ خمسة أقدام وست بوصات أي ما يعادل ١٦٨ سنتيمترا، فهو أذن في حجم الرجل المتوسط في، وبديهيا لزم أن يحس بنفسه أقل حجماً مقارنة بحجم البحار الملعون يعقوب تايشلر، هذا البحار الذي لم يكن أكثر الناس فطنة وكياسة. من ناحية أخرى وعلى العكس من ذلك كان هاينريش يشعر بضخامة حجمه قياسا بحجم جوتفريد كيلر الذي عثرت عليه أثناء بحثي في سجلات تصاريح السفر من قبيل الصدفة حيث جاءت خصائص بدنه كالآتي:

"الأنف متوسطة والفم متوسط والذقن مستديرة والطول خمس أقدام وأربع بوصات، أي ١٦٢ سنتيمترا"

أي ليس قزما كما عرضه للأجيال القادمة. إنه لمن المريح لأي شخص ومبهج لأحاسيسه بالحياة أن يكون عادياً في طوله ومتوسطاً في حجمه، ولكن الشخص الكبير يضطر إلى أن ينظر إلى الآخرين نظرة دونية حيث يصبح متشامخا متعجرفا أو مغاليا في الأمور

المتعلقة به، أو ينزع الضخم لنتيجة لعزلته إلى الإحساس بضآلة قيمته وسوء حظه أو إلى المغالاة في طلب الرفعة. وعسانا نستشف من واقعة تسجيل هاينريش أنه لم يكن راضيا على اتصافه بمتوسط الطول، كما أنه لم يرغب في ظهوره في جواز السفر باسمه الشخصي "يوهان هاينريش" وهو اسمه في المعمودية بل أملى على مكتب مصلحة الجوازات اسم "هاينريش" فقط كما كان يفعل في بداية وجوده في مصر حيث قام بتحسين اسم العائلة عن طريق تصغير الأسم وتحويله من "بلونتشيلى" إلى "بلونتش" أو بتغير الحروف اللاتينية من Bluntschli إلى Bluntschly للتشديد.

وعموما يجدر بنا أن نتنبه إلى هذه الحقيقة الآتية ونحن نعول على خصائص وسمات هاينريش، فكلمة "بولنتش" تغنى معاني كثيرة، منها معنى الأحمق، وتطلق هذه الكلمة أيضا على صاحب الأنف الخنساء، وأما إذا أُضيف إليها المقطع الأخير للتصغير أي "بلونتشيلي" ربما يصبح المعنى "الأحمق الصغير صاحب الأنف الخنساء"، ربما سُميّ أحد أسلافي في وقت ما في ظلام العهد السالف بهذا الاسم لأنه ضُرب في أنفه الخنساء ذات الملامح المطموسة، وبالرغم من التزاوج وتداخل الانسلال جاء نسل بلونتشيلى إلى عالمنا حتى يومنا الحالي وتتجلى فيه مشكلة انف بلونتشيلى بالوراثة.

ومادامت مصلحة الجوازات تدرج انف هاينريش متوسطة الحجم فأنها ليست خنساء، كما لا تنتسب إلى خنس الأنف، وممكن رسمها باستدارة دقيقة والجزء الخلفي العلوي ضيق وقواعدها متوسطة وضخمة، وهكذا رسمها رودولف كولر في باريس، وجاءت لوحته التي رسم فيها الأنف لتعوضنا عن الوصف العاجز لمصلحة الجوازات.

و أدعت جدتي أن هاينريش رحل مع الرسام رودولف كولر إلى باريس واشترك معه في سكن غرفة على السطح، وأفادت جدتي بهذا النبأ كما جاء ذكره عن هاينريش أثناء معاشه، ولقد سجلت هذا في الكراس الأزرق. وأثمرت هذه المعاشرة برسم رودولف صورة لهاينزيش ونعم ثمرة هذه اللوحة المبرزة شكل وهيئة هاينريش التي ظلت باقية إلى الآن، فقد رسمها بالزيت على قطعة قماش كتانية بدون توقيع ولا تاريخ. أستحث واعز الوطنية هذين الشخصين كليهما على القفول في سرعة إلى وطنهما، وهما في منتصف العمر بباريس؛ وجاءت هذه العودة تلبية لنداء الوطن بإسداء خدمة له بحمل السلاح حينما هوى في حرب أهلية، وما تقاعس هذا الشخصان عن تلبية هذا النداء سويا.

وكان كولر آنذاك في عمر التاسعة عشري ثم أمسى لاحقا أحد رسامي سويسرا المشهورين وأصبحت سيرته معروفه للجميع: كان

يقطن كولر مدينة دوسلدورف طالبا في أكاديمية الفنون وقتما رحل هاينريش إلى باريس أواخر صيف عام ١٨٤٦، وأقام صداقة مع زميله الريفي أرنولد بوكلين وأيضا رسم صورة شخصيه له. رحل معه إلى بروكسل في مارس عام ١٨٤٧، ولبثا هناك شهرين وأخيرا ذهبا إلى أنتفربن، وهناك افترق طريقهما، فأب بوكلين إلى وطنه ومضى كولر إلى باريس حيثما بلغها في أول يونيو – وعاد إلى سويسرا عقب إقامة شهرين بباريس، أي بعد ثمانية أشهر على وجود هاينريش، اندلعت الحرب الأهلية، وهى الحرب المسماة حرب تقسيم الاتحاد السويسري، فأرسلت جدتي هاينريش في هذا الوقت لخوض هذه الحرب.. فلنخلص إذن من هذا القول إلى الآتي: لم يرحل بلوتتشيلى وكولر سويا إلى باريس من الأصل كما أدعت جدتي، ومادامت جدتي مولعة بهذا الأسلوب لنقل الأخبار العائلية كما أقول لنفسي، فيمكن أن يساور الأذهان هذا التساؤل الآتي: هل تقابلا الاثنان أصلاً، إن جاءت الإجابة بالنفي فليس يقبل منطقيا أن كولر رسم هذه اللوحة لهاينريش؟

وأطلعت مدفوعا بالشك والفضول على آثار كولر من الخطابات التي بعثها ولم تنشر بعد، حدث ذلك في قسم المخطوطات بمكتبة زيورخ المركزية، وبدأت أطلع على ملف خطاباته التي بعثها لوالديه وأبحث عن تلك الخطابات التي حررت وقت تواجده بباريس فعثرت

في خاتمة الخطاب الأول على عبارة التعقيب الآتية وهى محررة في الثالث من يونيو ١٨٤٧:

" إن ابني القس المرحوم بلوتشيلى من فوت ديدبكون كليهما موجودان هنا، وكان أحدهما يدعى هنرى وهو فتى صالح، أما الآخر بمعروف بصفة العجرفة.

وكتب كولر في ١٢ يونيو الآتي:

" هناك ارتباط وثيق بين وبين هنري بلوتشيلى، فهو الوحيد الذي يعجبني لذا كنت دائما أرحل معه، وحيث أنني لم أجد شيئًا أقوم به في الفترة الأولى فكنت أرسمه، ولكن واصل هنري سفره ليتركني وحدي وبعد مضيه بقيت منفردا بلا صديق.

وكما هو معروف أن دراسته التراث لتبعث في عقولنا توجسا من الإعراض إلى الأساطير التي تغلب على التراث أثناء عملية الروي، خصوصا لو كانت موروثة أو مسلم بها عن رغبة في الحفاظ عليه، أي دراسة التراث تثير الخوف من تناول الصفة الأسطورية للموروث، ولكنها على نقيض ذلك، قد تأتى الروايات التراثية كجزء من التراث تناجا عن الخيال والتوق إلى الأفضل.

وقياسا على هذا القول لا تعد قصة غرفة السطح التي قطناها سويا ضربا من الخيال لأن كولر كان مع هيابنريش أو يزوره في أوقات كثير قبل أن يرحل عنه خلال تلك الأسابيع من شهر يونيو، على

العنوان الآتي ٣٨ طريق بلوى حينما أبدع صورته. ولنخلص هنا من سياق هذا الخطاب أن تحاب الرسام وموظف البنك المؤقت أو ابن الجزار وابن القس في ألفة وجدانية، ليتمخض عن هذا التحاب نوع من مشاعر الوجد التي أحس به الرسام باعثًا على إبداع مثاله المميز من التصوير، وكما يترائي لي ترجم مشاعر الوجد المعتلجة فيه إلى إبداع صورة لهيئة هاينريش.

ونعم الفتى الصالح هاينريش وهو ينظر بعينين وديعتين بسكينة وهو مستغرق في الخيال الخصب، فهو رجل سالم من الشر، وفمه بدون شارب وذقن بشفتين جميلتين حاملتين وتنمان عن براءة الطفولة، وصفاته تدل على نعومة أظافره إذ لا تظهر عليه دلالات التجارب، ولكنها تبين سهولة التأثير عليه دون أن تكون نوع من الخضوع أو الانصياع لأي شيء، أي يتبنى النصائح دون الإذعان لها.

وكم كانت تظهر أمارات ملبس هاينريش عن انتمائه إلى العالم وحوزة كيانا كبيراً وهو يرتدي كرافتة حريرية سوداء، ودبوس يثبت الجاكت والشارات المزينة للصدر، مرصعة بفصوص أونيكس وبالذهب، ربما استعارها أو اخترعها كولر، وكأن وجه هاينريش يطل من اللوحة ويرغب أن يقول شيئاً: مازلت عديم الخبرة وكأنني لم آت بعد إلى هذا العالم، وأنا أرد عليه قائلاً: أعرف أنت ستأتي إلى

عالمك لاحقا، ستأتي قريبا وبكل قوة.

وهكذا رسم كولر هاينريش وعلى نصف وجهه ظل، وأصبح هذا الضوء الخافت يبرز النصف الآخر ويقوم على إضاءة خلفية الصور ولمعانها، لذلك اختفت إحدى الأذنين وبعضا من الشعر الرئيسي في جوف الظلام، وأصبح الظلام أشد ظلاما مع مرور قرنٍ من الزمان على اللوحة، وأخذ زيت التلميع يتساقط رويداً رويداً ونمت اللوحة داخل وجه هاينريش عن بعض التصدعات في طبقات الطلاء والألوان.

الفصل العاشر

أحيانا عندما كنت أغادر أحد أرشيفات مدينة زيورخ كنت أشعر أنني محسود، فيوم واحد فقط أغيب فيه عن الناس كفيل بأن يعطيني إحساسا بأني لست إلا أثرا باقيا من آثار ذلك الزمن الذي مكثت فيه، وأن عودتي إلى عالمي ليست عودة إلى الطبيعي المألوف، وكأنما استحوذ عليّ إيقاع عصر آخر جعلني أرى في حركة السير الطبيعية في الشارع نوعا من الإسفاف، وأن الحركات المعتادة للناس ليست سوى رقصات تشنجية مرضية.

كنت واقفا أمام ماكينة التذاكر يملأني الحنق والضيق، وبينما أضغط على الأزرار وأستمع إلى صوتها الخشن، وإذ بالترام قد وصل المحطة وأقلع دون أن يصدر عنه أي صوت، ولما وصل الترام الآخر أزعجني صفير بابه وهو يفتح.. ركبت وقد سرت في جسدي قشعريرة، وتملكني خوف من الركاب.. كانوا يبدون وكأنهم متشابهون تماما مثل الحقائب الموضوعة على أرجلهم، والجرائد التي يتصفحها بعضهم، حتى لا يضطر للجلوس حائراً بينما تضيع الدقائق بين صعوده الترام ونزوله منه.. فالطائرات بها شاشات تليفزيونية تهون على الركاب مصاعب السفر، أما الترام في مدينة برن فبه ماكينة صرف آلية من مستحدثات العصر توفر على مستخدمها

الوقت . . أما هنا في هذا الترام فتقرأ في الوجوه مشاعر الضجر من طول المسافات، ومن وجود الكثير من وسائل المواصلات المملة التي يمكن أن يترك المرء فيها وحيدا دون أن يجد أحدا يحاوره أقل حوار فيخفف عنه وقت الركوب. . كنت تارة أفقد نظرات الحسد، وتارة أشاهد أمامي رأس امرأة متناسقا مقصوص الشعر، يبرز وجود تباين مريح، حتى سمعته يقول: "وأنا أيضا موصول بالكابلات الآن"، فاستغرقت وقتا لكي أفهم معنى هذه العبارة. . نزلت في المحطة التالية وأنا أسمع الميكروفون ينادي بصوت حيوان غريب . . دفعني الإحباط إلى النزول قبل الوقت، لأواصل سيرى على الأقدام، ومع أنني لم أكن في عجلة من أمري إلا أن جسمي كان يندفع للأمام بخفة بين المشي والهرولة . . كان أول ما شاهدت ذلك الإعلان الضخم المعلق على الحائط، شاهدته لأول مرة فأبطأت خطواتي، كان مكتوبا عليه عبارة "لا شيء بدون شيء" . . وبالرغم من موافقتي الجزئية لهذا المعنى، إلا أن مضمونه كان بالنسبة لي فظاً ومزعجاً نوعا ما، بينما هاينريش - كما جال بخاطري - لم يستطع أن يفك لغز هذا الإعلان، وكأني به ينظر مندهشا إلى الأشياء الضخمة المكورة ذات اللون الأحمر الوردي بدون فهم!

كان يلفت انتباهي في كل خطوة أن هاينريش لا يعرف أي شيء تقريبا عما كنت أدركه بحواسي وما كان يكتنفني ويؤثر عليَّ، سواء

كنت أستحسنه أم أستقبحه، ولا يعلم أي شيء عما أعرفه وأعتقد أنى أفهمه، ولقد مات قبل ميلادي بثلاثة وأربعين عاما، كنت أتصوره في عصرنا هذا يبدو كغريب أبله ترتعد فرائصه لا يدرى ما يقول أو أين يذهب.. قلت في نفسي: أود أن أربت بيدي على كتفيه أو ألاطفه ببعض الكلمات قائلا: صدقني نحن، أهل هذا الزمان، في أعماقنا نشعر أننا متشابهون، وأننا مثلك مثقلون، كيف يمكننا أن نشعر بالسكينة في مكان يُخلى كل ساعة ويدهن ثم يفرش بأثاث جديد؟ .. نحن أيضا مطحونون، يا عزيزي هاينريش، تسلب الدنيا منا أيضا اللغة التي نحن في أمس الحاجة إليها لنصف بها تلك الدنيا ونسبر أغوارها، فما رأيك في ذلك؟!

لم يتفوه بكلمة، ومضينا قدما في قلب المدينة، كان بين الحين والآخر يظل واقفا يسد أذنيه أو أنفه، وقد شرحت له كيف أن السيارات شيء ضروري للناس ماديا ومعنويا.. فهز رأسه معترضا، فقلت: من الممكن أن يكون صوتها أكثر خفوتا ورائحتها أفضل، ومن ناحية أخرى فهي لا تترك وراءها روث كما تفعل الخيول.. لم يكن ينصت إلى حديثي وقد حول نظره إلى إعلان على الحائط عبارة عن صورة لسيدة تنزع السروال الداخلي لرجل وتقبل مؤخرته بشفتيها الناريتين، وقد كتب أسفل الصورة: "اجعل مؤخرتك مكانا للقبلة!".. فشرحت موضحا بأن الأمر هنا يتعلق بإعلان

عن ورق مرحاض مبلل وأن هذا شيءٌ عام ومعروف، ولم يعد اليوم من الخصوصيات، فهز رأسه معترضاً، وبدا أن كلامي لا ينصرف بالفعل على إعلان الحائط، بل على فتاتين كانتا مقبلتين حاسرتين عن ساقيهما وخصريهما وصدريهما للهواء الطلق.. لم يكن هاينريش قد رأى شيئاً كهذا من قبل، اللهم إلا في أحد محلات مدينة باريس، أو في أحد النوادي الليلية التي كانت تنتشر بكثرة في مدينة الإسكندرية، حيث كان نادرا جدا ما تكشف الحجب، وكالعادة كنت أنا وجدي نتقاسم الشعور بالتحفظ على بعض الأشياء، التفتنا تاركين وراءنا تلك المظاهر الصيفية، ووصلنا إلى منطقة عبور مشاة، عليها إشارة مرور، كان عليّ أن أقبض على ذراعه لأوقفه بعد أن كاد يكسر إشارة المرور الحمراء، ليس لأن سيارة كادت أن تصدمه، بل ببساطة لأن الإشارة حمراء وليست خضراء .. فأنا اعتدت تلقائياً أن أحترم قواعد المرور التي لم يستطع هو أن يتعرف عليها.

في وسط المدينة كان هناك أناس يتحدث بعضهم مع نفسه، وهاينريش ينظر إليهم متعجبا، فبادرت بالحديث قائلا:

– ربما يبدو الأمر مخيفا إلى حد ما، ولكنه شيء معتاد، فهم يتواصلون لاسلكيا مع آخرين، ولا يتحدثون مع أنفسهم بأي حال، فهناك دائما شخص في مكان ما يتحدثون إليه، فالاتصالات الهاتفية أصبحت كالقضاء والقدر يمكن أن يأتيك في أي وقت أو في أي

مكان، أما كيف يعمل هذا الجهاز اللاسلكي الصغير فهذا ما لا أستطيع أن أوضحه لك، فهو من الداخل أعقد من أن نستطيع فهمه، ويشعر الواحد منا بأنه أنجز شيئًا عظيما إذا استطاع فقط أن يفهم كيف تعمل الأزرار والمفاتيح، فما رأيك في هذا ؟ !

لم يتلفظ هاينريش بكلمة، وظل واقفا على رصيف شارع ليماتكويس وأخذ ينظر بحنين إلى هذا الشارع، وإلى المبنى الفخم المألوف لديه، والذي يقع على الجانب الآخر، قلت له:

– إنه مقر شرطة المدينة منذ فتره طويلة، واعتقد أن باقي الأشياء معروفة بالنسبة لك.

مسح هاينريش دمعة تحدَّرت من عينه، فهل كان يعرف الخبر، فتساءلت في نفسي: هل كانت هذه دمعة شوق وحنين نحو مبني دار الأيتام الوحيد الذي لا زال قائما، وكان كل من جده سالومون بلوتشيلي وأخيه يعقوب قد وضعا أساسه؟ . .أم كانت هذه دمعة ألم؟ . . قلت:

– لست على يقين بأنك تعلم الأمر، ولكن عندما بدا من المؤكد أنك لن تعود، أخذت إليزا ابنكما تيودور من يديه وسلمته لهذه الدار، فقضى اثني عشرة عاما خلف هذه الأسوار.

وقف هاينريش مغتم النفس، وأحنى رأسه انحناءة واهنة تنم عن شعور بالذنب، فقلت له:

– من حسن الحظ، أنه أصبح بالرغم من ذلك رجلا صالحا، قام باختراع سحّاب سوستة الملابس والحقائب، كما أنه رزق بابنتين، إحداهما هي جدتي من ناحية الأب . . غير أنه تيودور لم يكن هو الوحيد من سلالتك الذي أقام في دار الأيتام، فهناك خمسة آخرون من أحفادك شاركوه فيما بعد نفس المصير، لأن أباهم – وهو ابنك الأصغر جورج من زوجتك المصرية – غادر عالمنا بعدك بثلاث سنوات وهو في السادسة والثلاثين من العمر، وقيل أنه اختنق إذا ابتلع بيضة حمامه وهو في القاهرة، وقيل أنه مات بالإسكندرية بسبب التهاب المصران الأعور، وقيل أنه مات بمدينة زيورخ بسبب سرطان الكبد وكان في مهمة كلفه بها بنك "كريدت فونسير"، المهم أن زوجته الفرنسية قامت على رعاية الأولاد الصغار بمفردها، ولما كان الأولاد يتمتعون بحق المواطنة في مدينة زيورخ مثل أبيهم ومثلك، فكان من المؤكد أنهم سيُقبلون هناك، فأخذتهم اوجستينا وسافرت بهم من القاهرة إلى زيورخ، وتركت أربعة منهم بدار الأيتام، إلا جين بابتستا فقد ظل معها وكان يبلغ من العمر ثلاث سنوات، ومات ثاني أصغر الأبناء هناك، أما البنات فعاشوا، ثم قدم جين بابتستا وهو يبلغ من العمر أحد عشر عاما من القاهرة وأقام في دار الأيتام،

وأصبح يعمل فطاطريا، ولعله إن لم يكن موجودا لكان. .

لما لم يظهر هاينريش أي اهتمام بالحديث، توقفت عن الكلام . . كان مستغرقا في التفكير، ويبدو انه لم يعد في وعيه، فمشينا حتى وصلنا جسر المجلس، فعبرناه، وعدنا عن طريق شارع "شيبفه"، وهناك في هذه الحارة الخالية من السيارات، المرصوفة بأحجار في حجم رأس الإنسان، على اليمين كان شارع "ليمات"، وعلى اليسار تراصت الأحجار القديمة واحدا تلو الآخر. . هنا كان هاينريش يحس بالحنين، ولكنه كان يمشي دون وعي، ولو لم أتوقف أمام المنزل الذي يحمل اسم "منزل اشتاين بوكلر" بألوانه الباهتة، وضلف نوافذه الخضراء، لما التفت إليه هاينرش. . نظر هاينريش إلى أعلى واجهة المنزل، وملامح وجهه لا تنم عن سرور بالتعرف على المكان، سألته:

- هل كان الأمر بهذا السوء ؟

فأومأ برأسه، فقلت في نفسي:

- كان يجب علي أن أكون على علم بأن البيت يذكره بفشل قديم، بطفولته القصيرة الضائعة في مرحلة الثانوية عندما كان يتمتع بحق الضيافة عند قريبه ومربيه هانز بلوتشيلي، ولكي أصرف انتباهه أشرت إلى اللوحة التذكارية المعلقة على بوابة المدخل، والتي لم تكن لوحة تذكارية لـ هانس صاحب مصنع الصابون، بل لابنه

العلامة يوحنا كسبر الذي يكاد اسمه يوجد في كل المعاجم تقريبا، وكان يدين بالفضل لـ هاينريش على توظيفه في شركة هورليمان لانديز. . ولم يقرأ هاينريش الكتابة المنقوشة بنبرة التبجيل، بل قرأها وهو يضحك، حتى أنه من الممكن أنه لم ير النقش أو الحجر بعين التبجيل.

وحقيقة لم أود اصطحابه إلى زقاق اوتنباخر حيث المنزل الذي كان يشعر فيه بسعادة غامرة، إلا أنني لم أفعل، فقد خطر ببالي حينها أن زوال السعادة سيكون له تأثير عليه، وأن ما ختم بسوء ما كان ليصبح أمرا طيبا في ذاته، فالذكريات تحفظ النهاية السيئة وتحبط ما سبقها من سعادة وهناء . . ربما كان هاينريش سيشعر بشيء آخر، إلا أنني لم اذهب رغم ذلك إلى ذلك الزقاق، فقد كنا هناك بالفعل، فقد أوغلت به كثيرا في عالم الأمس رغم أنني كنت أقصد أن أريه جزء يسيرا من عالم اليوم.

وقد كان شارع المحطة يفيض بروح العصر. . كان باردا وخانقا في بريقه وحركته، كما أن المتجر الذي دخلناه، وجدنا فيه رائحة عطر ذكية، وموسيقى هادئة، وضوءا وهاجا من ألاف المصابيح المبهرة التي تفتح أفواه السلع لتصرخ عارضة نفسها للزبائن، والمرايا من حولها تعكس صورتها مرات عدة، وكأن العرض نفسه لم يكن يخطف الألباب بما فيه الكفاية. . وفى تلك الأثناء لا يرى المرء شيئا

من هذا ولا ذاك، حيث تبدو السلع كقطرات في بحر، بل لا يرى إلا تدفق الأضواء ولا يسمع إلا صخبها . . لو نظرت إلى إحدى البائعات لا تجد إلا تمثالا لعرض الملابس، وعلى النقيض من ذلك يظهر تمثال عرض الملابس في صورة بائعة، وهنا يهرع المشترون ببطء وبنصف وعى، ويبادرون بشراء هذا التمثال بشغف ونهم، ويحملون السخيف من الأشياء إلى خزينة الأموال التي تئز وتكركر . . وأمام السلم المتحرك زلت قدم هاينريش، فجذبته من ذراعه وغادرنا هذا المتجر المخيف، ووقفنا سويا برهة من الوقت ونحن مزعزعون فقلت له:

– ما أردت إلا أن أيسر عليك العودة . . أعني عودتك إلى عالمك.

وفجأة ونحن في الصالة الشرقية للمحطة سل هاينريش ذراعه من يدي، ولا يمكنني أن أقول بأنني فقدته وسط جمع غفير من الناس، لأنه لم يكن هناك زحام بالمرة، بل كان اختفاؤه أمرا عجيبا ومفاجئا . . أخذت أدور حول نفسي متعجبا، فلا أثر لـ هاينريش، وكأن الأرض ابتلعته أو كأن أحدا اختطفه، نظرت لأعلى فوجدت نفسي واقفا تحت تمثال فخم، تحت مَلاك يحلق وتزينه الألوان وهو يمد أجنحته الذهبية ليكتنف حجاجه وقاصديه، وفي بطء شديد وهدوء

تام عبرت الصالة منشرح الصدر، فلما جلست في قطاري منتظرا تحركه، لاحظت أنني لم أعد محسودا .

الفصل الحادي عشر

في فندق "النيل هيلتون" الفخم الذي يبعد خطوات قليلة عن المتحف المصري اقلني المصعد إلى الطابق الثالث عشر حيث جلست في بار الهرم، وفى غياب الضوضاء من حولي قمت بإعداد تخطيط للمستقبل أثناء احتسائي زجاجة من البيرة . . كنت رابط الجأش غير متوتر الأعصاب، لأنه طبقا لدار المحفوظات فربما تمر أسابيع وشهور حتى أصل إلى هناك، ولعل هذا من أجل دفع ثمن فترة الاستشفاء القادمة. وقلت لنفسي أن الأمر أصبح على ما يرام، فملفات هاينريش ربما لا تزال محفوظة، وعليه فالوصول إلى المكان الذي كان يعيش فيه قبل أن يستقر في القاهرة ليس بالأمر الصعب، وسيدلني تشارلز على الطريق إليه. . أخرجت من جيب معطفي الخطاب الذي أرسله تشارلز – أول أبناء هاينريش المولودين في مصر – ذات مرة إلى جدتي ليطلعها على مجرى حياة والده، الذي هو جدها .

قرأت الخطاب أكثر من مرة ولكن بدون وعي مثل جدتي التي تركت الأجزاء الأخيرة منه في كراستها الزرقاء . . وكلما تمكنت من وضع الخطاب في سياق الأحداث التي جرت في مصر آنذاك،

كلما انتبهت لما فيه أكثر، وكما كنت أعتقد فقد أخذ الخديوي عباس – الذي حكم قبل خَلَفَيْه سعيد وإسماعيل باشا – الشاب هاينريش معه في خدمته، وقام بتعيينه مفتشا عاما على جميع أراضيه الزراعية . . وعلى حد علمي كان هذا الظالم المتوحش الماكر عباس، على وشك أن يرسل إلى الجحيم آخر الأوروبيين الذين كانوا لا يزالون في الوظائف الأميرية المصرية، في الوقت الذي بدأ فيه هاينريش يحط الرحال بمصر . . كان هذا الإجراء الذي أوشك أن يتخذه الخديوي عباس أقل أعماله شناعة، وقد حالت دون وقوعه جسارة أبدتها راقصة رآها عباس ترقص ذات مرة في مكان ما، فطلبها في الحال لإشباعه جنسياً، إلا أنها بدلا من الإحساس بالتشريف، قامت بوضع السم في الشاي أثناء قضاء حاجته، ولما دخل ذلك الشيطان تفوح منه رائحة المسك، أمرها أن تشرب من فنجان الشاي قبله، فلما شربت، شرب هو كذلك، فلقيا حتفهما سويا . . وطبقا لرواية أخرى، فإنه قد خنق وهو نائم على يدي اثنين من عبيده، على أي حال فقد أسلم روحه في يوليو عام ١٨٥٤، في ذلك الوقت كان هاينريش قد قضى في مصر ثلاث سنوات ونصف شغل فيها وظائف متواضعة . . كان نكرة لا يعرفه أحد، ينام على وسادة من القش ولكنه بالتأكيد كان يحلم بمعالي الأمور .

قلت مخاطبا نفسي وأنا أجلس في بار الهرم بعد قراءتي للخطاب

مرة ثانية: على المرء ألا ينسى أن تشارلز عندما كتب هذا الخطاب كان عجوزا قد ذهب بصره وضعفت ذاكرته، وبجهد جهيد كان يُصَوّر الأشياء المحتملة وكأنها حقيقة ثابتة، وعلى العكس من ذلك، يحولَ الحقائق العارية إلى أشياء نسبية . . قلت لنفسي وأنا لا زلت أجلس في بار الهرم: ينبغي عليّ ألا أُغفل عن خطابه الذي يصف فيه المراحل الأخيرة في حياة والده، كان له مصداقية نسبية، فهو لم يعرف تلك الفترة من روايات الآخرين وحكايتهم فحسب، بل عايشها بنفسه، على كل ليس ثمة شيء ثابت يعتمد عليه، ومع ذلك فما بيدي هو أوثقَ عندي مما هو آت . . وقلت لنفسي: حتى لا يستحوذ عليَّ اليأس من البداية يَحْسُن أن أستعرض تاريخ هاينريش في مصر من النهاية، وأن أتتبع– على هُدى تشارلز – مسيرته من الخلف إلى الأمام وكأنها سجادة طويلة كانت زاهية الألوان ثم بهتت بالتدريج.

كان المتحف الجيولوجي بالقاهرة في منطقة نائية، يصعب الوصول إليها، وقد قام المدير شخصيا بمرافقتي فيه، إلا أنه لم يكن يعرف

بلونتشيلي المسئول الأول عن الملح المصري، ولا حتى كذلك منطقة الشلوفة التي ارتقى فيها هاينريش مرتقا عظيما، حسب ما قاله تشارلز:

"وأثناء قيامه بجولة تفقدية عام ١٨٨٣ في منطق القناة الواقعة شمال مدينة السويس، لفت انتباهه أن هذا المكان به كميات هائلة من الملح، فأبدى ملاحظته هذه للحكومة التي كلفته بناءً على ذلك بعمل تقرير يعتمد على دراسات علمية متعمقة. فأنجز ذلك بالفعل، ثم عُين في آخر الأمر مديرا لمصانع الملح المصرية، وقام بتأسيس مصنع ضخم بمنطقة الشلوفة التي تطحن فيها كتل الملح التي تم تكسيرها بالديناميت من قبل، وهذا المكان كانت قوته العاملة تتراوح بين ٢٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ عامل، وينتج ما يقرب من ٤٠٠ طن يوميا من الملح."

ولم يكن مدير المتحف على علم بأي شيء من ذلك، ولكنه قادني إلى المكتبة الصغيرة بجوار صالة العرض ثم وضع أمامي عدة مراجع باللغة الإنجليزية كي أدرسها بنفسي، ثم كلف أحد العمال بأن يحضر لي فنجانا من الشاي، وفي فهرست المراجع الخاصة بالكتاب الأول وقع نظري بغتة على كلمة "شلوفة"، إلا أنه لم يذكر في الفصل الخاص بهذه الكلمة أي شيء عن مصنع الملح الذي أقيم فيها، ولكن ذُكر هنالك شيء عن وجود كميات هائلة من الملح بجبل الشلوفة

وهو سلسلة تلال منخفضة الارتفاع تقع في الشمال الغربي لمحطة القطار.

كانت هذه المعلومات تكفي بوجه عام، لأن المعرفة الدقيقة للأوضاع ستُرى على أرض الواقع، بالرغم من ذلك أخذت أتصفح كتاب آخر لأني ما زلت أنتظر فنجان الشاي، كان هذا الكتاب صادراً عام ١٨٧٧، وقد وجدت فيه أيضا بعض الملاحظات عن صخرة الملح في هذه المنطقة الغامضة، وقد أثارت تلك الملاحظات حنقي واعتبرتها مسيئة، فقد جاء فيها أنه كان يجرى البحث عن أماكن وجود الملح بالتنقيب بالأصابع في ذلك الوقت، وأنها لم تساهم في إنتاج البلد من الملح إلا مساهمة قليلة لا تكاد تذكر . . كما كتب أيضا أنه لو جرى استغلال المواقع الغنية بالملح بطريقة جيدة لأمكنها أن تسد حاجة السوق الهندية من الملح.

ولم يسلط المؤلف الإنجليزي الماكر الضوء في كتابه على موقع مصنع بلوتشيلي، ويبدو أنه أيضا لا يعرف بأن بلوتشيلي سافر إلى بومباي في مهمة كلفته بها الحكومة المصرية، كي يقوم بتسويق الملح هناك بمواصفات مناسبة جدا بفضل قصر طريق النقل وانخفاض رسوم المرور عبر القناة، فتفوق بذلك على منافسه الرئيسي ممثلا في الشركة الإيطالية التي كسدت تجارتها من الملح منذ ذلك الوقت.

لقد نسي الشاي، وكان بإمكاني أن أنصرف بالفعل لولا أني رأيت مجموعة صغيرة من فتيات مراهقات يرتدين الحجاب قدمن إلى المكتبة، وأعلمن بوجودي في المكان وبجنسيتي، وكلفن بالتحدث إليّ وطرح الأسئلة عن بلدي لاختبار لغتهم الإنجليزية اللاتي تعلمنها في المدرسة، وهذا ما قامت به الفتيات وهن بين الجرأة والخجل، فكنت بالنسبة لهم شخصا من جنة مليئة بالثلج والشيكولاته والمال والجبن! . . ولما وضحت لهم بأن هذه الصورة ليست حتما الحقيقة الكاملة، سألتني واحدة منهن عيناها بلون اللوز كيف هي الحقيقة الكاملة إذن؟! لكن لم يخطر ببالي أي شيء حول هذا الأمر، فنظرت إلى ساعتي مذهولا، واعتذرت لهن ثم انطلقت مسرعا.

وبعدما قمت بزيارة متحف البريد، وتحدثت إلى مدير المتحف عن أمور تخص هاينريش جلست للاستراحة على أريكة في حديقة الأزبكية، التي كانت فيما مضى من الزمان حديقة عامرة خضراء تتمركز في ميدان الأزبكية القديم، هذه المنطقة بما فيها من فنادق وقنصليات وحوانيت ومسارح كانت تمثل المركز الاجتماعي للحياة

الأوروبية في القاهرة. . وفي هذه الأماكن كان هاينريش يقضي أمسيات شتى في أواخر عمره جالسا تحت شجرة الجميز يشرب القهوة ثم يستمع إلى فرقة الموسيقى ويشاهد موكب عربات الحنطور، والعربات الفاخرة التي كانت تمر عليه، مضاءة بشمعدانات من خمس شمعات تعمل بالغاز. . ها أنا الآن أجلس في نفس المكان بعد قرن من الزمن أفرك عينيي مكان هاينريش وقد تحولت الحديقة العامة إلى حديقة صغيرة منكمشة مقفرة ليس بها إلا نخلات يابسات وجزيرة وسط بحر الطريق وقد نما فيها شيء أخضر مترب، كانت المقاعد خالية، وبدا أنه لم يعد الناس يأملون في الاستراحة في هذا المكان، فاجتهدت في قبول ما آلت إليه الأمور، وألا أحزن على الماضي، شعرت في نفس الوقت كأنه من الواجب عليّ أن أعتذر للأشباح الذين يسبحون حول الحديقة، خاصة شبح مؤسس الحديقة كرستيان اشطم صديق هاينريش وبلدياته، فقد ساهم بدم قلبه في تأسيس حديقة الأزبكية التي كان مكلفا بها، كما دفع المزيد من دمائه عندما قضمت سمكة قرش أربعا من أصابع يده وهو يستحم في بورسعيد، وكان من بين الأشباح شبح دكتور هيس الذي كان سعيدا بإقامته هنا، وقد ارتبطت به لأنه كان طبيب هاينريش ورفيقه حتى الموت، وطبقا لشهادته فإن هاينريش لم يمت ميتة طبيعية، فقد كان كثيرا ما

يتحدث عن أوزاره الثقيلة، وقد وصف حياته إجمالا بأنها كانت رحلة شاقة.

لكي أتابع الترحال وأنا خالي البال تركت حقيبتي في الفندق، ولم آخذ منها إلا الضروري جدا.. اشتريت تذكرة من شباك المحطة التي تتحرك منها الحافلات إلى مدينة السويس، ولما صعدت الحافلة، أخذ المحصل يفتش على التذاكر، وبعد إقلاع الحافلة بفترة قصيرة نهض مساعد السائق، وتحرك من صف لآخر لكي يراجع التذاكر بدقة.. وبعد مضي نصف ساعة توقفت الحافلة ليصعد شخصان آخران، مهمتهما التفتيش الدقيق على التذاكر، وهما يحملان استمارات في أيديهم، ويضعان عليها علامات.. فقلت في نفسي: من المحتمل أن يتم مراجعة هذه التذاكر من قبل موظفين آخرين في مكتب بشركة النقل، ثم ترسل من هناك إلى قسم الرقابة بوزارة النقل والمواصلات.. كانت الحافلة ما زالت تسير، وكان المنظر الخارجي باهتا، وبدلا من النظر إلى كثبان رملية خلابة تجد أكواما من القمامة على جانبي الطريق الصحراوي وتشاهد كذلك الصفائح المتآكلة، وإطارات السيارات وحطامها وآلافا من أكياس البلاستيك الصغيرة المتشابكة في تلافيف منخفضة قاتمة اللون، ولو كان هناك أحد لديه أفكار ثرية حول خلق فرص عمل جديدة لوجد بالفعل هنا إمكانيات لا باس بها، فقد أبصرت إحدى عربات النقل الثقيل تفرغ حمولتها

على حافة الشارع، فلفت هذا انتباهي إلى التفكير في إعادة تصنيع القمامة بعد تجميعها وتخزينها، وقد كان في صالات مطار القاهرة بعض الصناديق الزجاجية على شكل الأهرامات مزودة بفتحات لوضع النقود، مكتوب عليها بسبع لغات: "ساهم في إنقاذ البيئة المصرية!" إلا أن الضيوف القادمين كان باستطاعتهم تحمل هذه البيئة، أما المغادرون فقد ولوها الدبر، لذا لم ينتج عن تلك الأهرامات الزجاجية شيء يصلحون به الحال.

ضاق صدري قبل دخول السويس بمعامل تكرير البترول وأعمدة تيار الضغط العالي المتواجدة في رمال الصحراء، وزاد غضبي لما دخلت مدينة السويس، فكنت أسير مستنشقا الهواء العليل باحثا عن فندق بل إير الذي يقع - وفقا لما جاء في كتاب الدليل السياحي- في مكان نظيف عامر بوسط المدينة، إلا أنني وجدت هنالك سيارة مجنزرة يعلوها صدأ مصطدمة بآخر سور كان قائما في هذا الفندق.

وفي فندق قريب جدا يعلوه السواد اسمه البيت الأبيض!.. وجدت حجرة، ثم تقويت بأكلة دجاج، وسرت بعد ذلك في شوارع المدينة التي يعمها الفوضى والخراب.. فالطوب وبقع الماء والقاذورات وأماكن البناء تعم أنحاء المدينة، وتتواجد كذلك مبان قذرة مسكونة لم يكتمل بناؤها بعد، تعلوها أعمدة خراسانية، تخرج

منها زيادات حديدية تحلق في الهواء الطلق. . كانت المدينة كأنها مسكونة بالأرواح، يبغضها الإنسان من أول نظرة، حتى أنه يشمئز من النظر إليها ثانية. . الشيء الوحيد المقبول الذي أثار إعجابي ودهشتي هو عدم وجود أفواج سياحية، فلم أر في مدينة السويس سائحا واحدا، وعليه فلم يكن هناك أثر لأي من أكياس النقود والحقائب القيمية التي يربطها الناس على بطونهم كحيوان الكنغر، فتعطي صورة سلبية لشوارع الأماكن السياحية، فيما عدا ذلك فإن مدينة السويس - كما قيل - مدينة خاوية على عروشها، وستظل دوما هكذا وفقا لقول القدامى المعاصرين لـ هاينريش، بالرغم من ذلك فقد عاش هاينريش وزوجته وأولاده في هذا المكان ما يقرب من خمس سنوات، ورغم وجودي في المكان إلا أنني لم أستطع أن أحمله على الظهور، فقد كان بالنسبة إليّ أبعد من كل زمان ومكان.

جلست في مقهى صغير وطلبت فنجانا من الشاي فأحضره لي رجل لبق أبيض البشرة، يتحرك بحرص شديد، ووضعه أمامي، وسألني عن الدافع وراء مجيء إلى مدينة السويس، فشرحت له الأسباب بشغف وإسهاب، لأن ملامحه كانت توحي بالاهتمام، وسألته في النهاية في صيغة توسل:

- هل كان في الشلوفة ذات مرة مصنع للملح أو ما شابه ذلك؟ وهل لا يزال موجودا؟

فقال:

– ربما . . ثم تحرك ذات اليمين وذات الشمال وتحدث فجأة باللغة العربية بصوت هادئ، وبعد برهة من الزمن جاءت الإجابة من ركن معتم، عبارة عن صوت أجش خشن، فأبصرت ملامح رجل مسن يجلس منكفئًا أمام نارجيلة، وهنا فهمت من نظرات عامل القهوة بأن هذا الزبون البسيط ذو شأن عظيم، أخذ الزبون متسعا من الوقت رغم لهفتي ونفاذ صبري، ثم تحدث بلغة إنجليزية على نحو غير مألوف، قائلا أن جده الأكبر يتذكر بالكاد شيئًا عن الملح ناحية الشلوفة.

بعد مضى ساعة من الزمن ركبت مع احمد – هكذا يدعى – الذي كان يعمل مدرسا للغة الإنجليزية بلا طلاب، في الكابينة الأمامية بجوار سائق سيارة شيفروليه صغيرة صفراء قديمة، كانت السيارة ضيقة ومتضعضعة، إلا أنها متماسكة . . لم ينزعج السائق حين قال أحمد بأن رحلتنا محفوفة بالمخاطر، لأن الشلوفة والمنطقة كاملة على امتداد قناة السويس، هى منطقة عسكريه ممنوع الاقتراب منها، وهذا كان سبب اختيار رفيقاي للطريق القديم الضيق من السويس إلى الإسماعيلية، الذي لا يكاد يسافر عليه أحد . . هذا الطريق – على العكس من الطريق الأخر الذي يجب على الأجانب أن يسلكوه دون غيره من الطرق – كان خاليا من نقاط التفتيش،

هدأ من سرعة رحلتنا الحفر المتناثرة على الطريق وعربات الكارو والماعز والدجاج المتواجد في قارعة الطريق، وأثناء سيرنا كان يوجهنا من اليسار خط رمال ترعة الإسماعيلية العذبة، ومن اليمين قناة السويس التي تحجبها السدود الرملية المقامة على الشاطئ، وبعد بضعة كيلو مترات ظهرت القناة من خلال منفذ مفتوح في سد الرمال، هذه القناة كنت أسمع عنها منذ نعومة أظفاري؛ وقد كنت على علم بأن جدي الأكبر لم تكن له أدنى مشاركة في بناء هذا الصرح العظيم قطعيا، بل لم يشارك في شيء على الإطلاق، ومع ذلك سحرني النظر إليها، وكانت سعة القناة مهيبة الطلعة، إلا أن الماء المتلألئ قاتم الزرقة أذهب تلك الطلعة . . أبديت رغبتي في التقاط صورة وطلبت من السائق أن يتوقف إلا أنه لم يستجب، فأشار أحمد إلى أعلى حيث يتواجد برج مراقبة معلق على جانب الطريق، وأبصرت منه خوذه ومرور مدفع رشاش.

وصلنا بعد ساعة إلى النهاية الجنوبية للبحيرات المرة، وهذا يعنى أننا ابتعدنا كثيرا وسهونا عن منطقة الشلوفة، لذا عدنا من حيث جئنا، وبدأنا نسأل عن المكان، فأشار فلاح، كان واقفا على جانب الطريق، إلى الغرب، وأشار آخر قبله نحو الشرق، فاتضح تدريجيا أن الشلوفة ليست مكان واحدا، بل هو عبارة عن مجموعات متناثرة من

الأكواخ المتهالكة المبنية بالطين والآجر، نزلنا في مكان ما، وهنا تمطى أحمد وهو يرتدى ثوبا أزرق لامعا، ثم قال :

- الشلوفة، هنا الشلوفة!

نظرت حولي غير مصدق، وجعلت أبحث في التربة الرملية عن منجم ملح، أو مصنع ملح، أو حتى أطلال لأحد مصانع الملح، فلم أجد شيئا، أما أحمد فقد اكتشف شيئا زرع به الأمل في صدري، كانت حفرة جافة عليها قشور ملحية، صاح أحمد:

- هنا ملح.

وتصرف هكذا وكأن المهمة قد انتهت بعد، خاصة مع حلول المساء، إلا أنني لم أوافقه الرأي، وأردت أن أشاهد المحطة، محطة قطار الشلوفة، وكذلك التل الواقع في الشمال الغربي منها، حيث من المفترض أن يوجد مصنع الملح الخاص بـ هاينريش.. ثم وجدنا المحطة بعد أن سألنا كثير وسرنا طويلا في طرق لا يكاد يمر بها أحد من الناس، كانت المحطة تبدو وكأنها دائما مهجورة وفى حالة كئيبة، وعلى أحد جانبي الرصيف تجد برجا للمراقبة، مزود بسلم خشبي يؤدى إلى حجرة المستخدمين؛ وعلى الجانب الأخر قبع رصيف الشحن والتفريغ وقد ألحق به مخبأ.. على هذا الرصيف كان هاينريش يتحرك هنا وهناك بتؤودة وهو يعرج عرجة خفيفة، كان يرتدى حلة حمراء، تمثل زياً موحداً مفروضا على موظفي الحكومة،

وكانت له لحية أطلقها باختياره تظهر عليها ملامح الشيب. كان الزى بسيطا بالنسبة للمدير العام، فالثياب رثة جدا، المعطف على سبيل المثال – وما به ثنيات كثيرة – كان ضيقا عليه، وكذلك البنطلون أوشك أن يتمزق، وكانت ملامح وجهه – على حد علمي – تعبر عن الاعتداد بالنفس، والإصرار والعزيمة الإدارية القوية، وفي وقت المساء كانت تبرق سلسلة ساعة الجيب، التي كان ينظر إليها من وقت لآخر، وهو ينتظر القطار المسافر إلى مدينة السويس . . أردت أن التقط صورة، إلا أن الحراسة الموجودة في برج المراقبة نادت لأسفل بجملة كنت لأعرف معناها حتى وإن لم يترجمها لي أحمد: "ممنوع التصوير فهي منطقة عسكرية"، فتحركت إلى برج الحراسة – مع أنني لم أقصد فعل ذلك، خاصة وأنى لم أشاهد منطقة عسكريه لا عن قرب ولا عن بعد – وصعدت السلم إلى أعلى وصافحت الحارس بلطف، ووضعت له شيئا في يده، زال على أثره المانع، عندما استدرت إلى الخلف لكي التقط صورتين لرصيف المحطة، تراءى لي سلسلة من التلال المنخفضة تبدو في الأفق الشمالي الغربي، أخذت كل الأشياء تجذبني إلى هناك، ولحسن الحظ تفهم رفيقاي الموقف من خلال رفع التكاليف قليلا، فتحركنا في صمت تام اتجاه الهضبة، التي تمثل مركز نشاط هاينريش، حتى وصلنا إلى منتصف طريق، فصدنا حاجز به أربعة جنود، وكان أمرا مزعجا . . وكأنهم

يريدون القبض عليّ، كيف يتواجد أجنبي في أرض الشلوفة المقفرة؟! . . أدركت فجأة كم كنت مثارا للشك، واتضح لي أن التلال التي بحث فيها هاينريش تتمركز فيها الآن صواريخ مضادة للطيران، فتحدث أحمد لمدة طويلة وبهدوء ومن المحتمل أن يكون نجح في تقديمي لهم باعتباري باحثا عن الملح بلهفة، إذ أن الحراسة قد ضحكوا، وقبلوا سيجارتي، وتركتنا نواصل سيرنا، ولكن ليس في الاتجاه الذي ارتضيته، حيث التلال التي أردت أن ألتقط من أرضها قطعه من ملح بلونتشيلي، وهذه كانت أقل أمنياتي.

ذهبت إلى النوم مبكرا أحس بمرارة في نفسي واستيقظت مجهدا للغاية، فكان من الصدفة أن أمر على وزارة التكنولوجيا والمعلومات أثناء بحثي عن مقهى، فاعترتني صحوة، فمن أين تتم مساعدتي إن لم تكن في هذا المكان؟ . . وحقا ساعدني الناس بما فيه الكفاية، ومع ذلك لا يعلم أحد شيئا فيما يتعلق باستخراج الملح ومصنع الملح في الشلوفة، فهل كانت تنقل كل الملح من الشلوفة سواء بالقطار أو بالقوارب إلى المدينة لإعادة تصنيعها، وعليه يقع المصنع الكبير للملح الذي كان رئيسه هاينريش، في مدينة السويس؟ . .ولكن لا أحد يعلم شيئا، فمنهم المؤيدون ومنهم المعارضون، وكان سؤالي: هل يوجد الآن مصنع ملح بمدينة السويس؟ فأجابت قلة منهم بـ نعم

فعزمت أثناء تناولي قهوة الصباح أن أغلق الكلام عن الملح وأحوله في الحال إلى شاطئ عذب جديد .

الفصل الثاني عشر

كانت ألوان اللوحة زاهية للغاية. . طبقة زاهية فوق الأخرى، وصعب ذلك من إمكانية لف قماش اللوحة واستوجب بقاءها مشدودة فوق الإطار، كانت اللوحة موضوعة في غطاء مصنوع من القماش ومدهون بالشمع وحوله رباط مصنوع من خيوط القنب. لم يهتم هاينريش في كل رحلاته بشيء مثل اهتمامه بصورته هذه، حتى عندما كانت تأتيه زيارة أو يدعو ساعي البريد أثناء توقفه أمام مضيفته، كان يصطحبه إلى المضيفة ومهما ظل الساعي في ضيافته ساعة أو أكثر كان لا يسمح للخدم بملامسة اللوحة ، وكان يضعها بجوار سريره طوال الليل. . ولما سافر بها في العربة المتجهة إلى مدينة زيورخ لمدة خمسة أيام، كانت الصورة مازالت سليمة إلا أن قلب هاينريش قد أصابه القلق . فهل كان ارتباطه بـ ليزا أمرا طيبا ؟ . . هل أغضبها قرر عودته إلى بلاده مع نهاية شهر يونيه، أي سيتأخر السفر فجأة لمدة شهر؟ . . وهل كان هناك سبب لتأخر إرسالها خطابيها الأخيرين؟ . . أم ربما أن والدته، التي كانت تعيش في شقه

بالمدينة وجهزت له غرفة عندها لأنها لم ترغب أن تخجل شعوره، أو تنال من استقلاله المكتسب في مدينة باريس بنصائحها له؟ . . أنه أراد بالفعل أن يقدم على أي عمل وظيفي محترم.

استقبلته والدته بالأحضان، ونصحته بعدم ارتداء قبعته البيضاء المصنوعة من جلود الأغنام بعد ذلك في زيورخ، لأنها ملفته للأنظار. وبعدما وضع الحقائب والصورة في حجرته الجديدة، قالت الأم وهي تشم رائحة شيء:

- بحق المسيح! هل أنت متطيب بعطر؟ . .

فقال هاينريش:

- لا ولكني أيضاً أشم رائحة عطر!

وأثناء تفريغ الحقائب اتضح أن زجاجتي العطر اللتين اشتراهما بمرتب نصف شهر من أجل زوجته إليزا، قد كسرتا، وتسربتا في جاكت النوم القطني. . أطلقت الأم على ذلك العصر وقت الشدة، وهاينريش يسمع إليها وهو مثقل الجفنين فقد أصبح كل شيء سيئًا في العام الذي غاب فيه، وحلت الأزمة بمشارق الأرض ومغاربها، وزاد الغلاء، وإضافة الآلات الميكانيكية زاد من وطأة الفقر بعد احتلالها لمكان الأعمال القديمة. . وباختصار فإن الناس، وخاصة أهل الريف، عاشوا جماعات في فقر مدقع، وغادروا البلاد باحثين على لقمة العيش في الخارج. فقالت الأم:

– سيظل مثل هذا الأذى بمشيئة الرب بعيدا عن أبنائي، فإنهم محصنون بما فيه الكفاية، وسيصمدون أمام هذه الأزمة المحلية . . ولما كان من المعلوم أن كل بداية صعبة، سأساعدك أنت وكونراد لتخطي هذه الأزمة.

فسأل هاينريش وهو يكظم تثاؤبه:

– كيف إذن؟

قالت الأم إنها مستعدة أن تتنازل عن جزء من ميراث الأب، الذي يحق لها التصرف فيه، وأن تتبرع بقطعة أرض لتأسيس شركة الجلد المرتقبة التي تطمئن إليها . فيصبح كونراد دباغا، وهاينريش تاجرا، وبالتالي يكوّن الأخوة بلوتشيلي شركة نموذجية، من المحتمل أن ينضم إليها أيضا تشارلز، الأخ الأصغر . . كانت الأم تقول ذلك وكأنها ترى صورة الشركة متمثلة أمامها .

شكر هاينريش الأم، ولم يخبرها بأنه يعاني الأمرّين من إخوته، فـ كونراد قاس للغاية في المعاملة، وتشارلز متكبر جدا . وهو يكظم ذلك، وكأن الجلود غريبة عليه، ولا تحمسه كي يتعامل مع المادة التي يصنع منها مئزر الجزار والأحذية الشتوية، حيث تتهافت نفسه من قبل ومن بعد على الحرير . فقال هاينريش مخاطبا نفسه: على أي حال، فإن مساعدة الأم تعني أن الموافقة النهائية لأبوي إليزا

وإليزا نفسها لا تقف الآن حجر عثرة في طريقي، وهذا هو أهم شيء . . فقالت الأم التي تقرأ أفكاره دائما:

– أما عن إليزابت، فهي بالنسبة لي – إن لم تكن قد فقدتها من قلبك في الغربة – ابنة على الرحب والسعة، إلا أنني أسدي النصيحة بالانتظار لبعض الوقت، لأنه لن يتبوأ أحد مكان الصدارة في ظل عدم الانتعاش للوضع الاقتصادي فحسب، بل كذلك أيضا الوضع السياسي المهدد بالخطر، لدرجة الخوف من اندلاع حرب أهلية . . حتى أن السبع مقاطعات الرئيسية الكاثوليكية، التي تحالفت مع بعضها البعض، تتصرف الآن وكأنها لم تعد تنتمي إلى سويسرا بعد، فقد أعرضت عن النهوض بالبلاد، ولبست روح العداء، حيث تزيد من التسليح الحربي كما يقال، ومن فترة قليلة في العشرين من شهر يوليو بالتحديد قررت الأقلية الليبرالية في السلطات العليا للبلاد إلغاء الإتحاد الخاص، لأن الطبقات المعنية المعادية للإتحاد استهزأت – كما يقال – بقرار اللائحة العليا، وامتنع كذلك اليسوعيون أن يبتعدوا عن أماكنهم، وهم الذين حملوا على عاتقهم التقدم الاجتماعي والسلام الداخلي للوطن، فانقسمت البلاد إلى طبقتين منفصلتين.

ولما كان من الضروري أن أضع في حسباني أسوأ الظنون، كان الأفضل أن أسس بيت الزوجية في ذلك الوقت . . وفجأة استيقظ

هاينريش مرة ثانية، فمن ناحية، لأن الحديث أثار قلقه، ومن ناحية أخرى لأنه لاحظ مندهشا كم كانت أمه جميلة وحاضرة الذهن، فهو يحب فيها وجنتيها الحمراوتين وشعرها وشخصيتها الرزينة. ثم ضرب بقبضته على المائدة قائلا:

– إنه لا ينقصني شيء، وأنا على أتم الاستعداد أن أكون أسرة، ثم أتزوج، فهل ترغبي في رؤية هدية مخطوبتي؟

نظرت الأم إلى صورة ابنها المضيئة بثلاث مصابيح زيت صغيرة، فأثنت عليها، وقالت مرارا وتكرارا، وكأن عيني أبيه تنظر إليها، ولا ينقصها الآن إلا برواز شرفي مصنوع من شجر الجوز، وهذا ما تريد إهداءه إياه، فأخبرها هاينريش، إنه كان يفكر قبل ذلك في برواز ذهبي.

وهنا قطبت الأم جبينها، وقال هاينريش وهو في حيرة، أنه لا يقصد برواز من الذهب الخالص، بل مطلي بالذهب . . ففكرت الأم وهي تستغرب الأمر، على أنه تاجر، ويبدو أنه لا يعرف سعر صحيفة من الذهب الرقيق. ثم قالت:

– كيف سيكون الأمر، لو قمنا بطلاء البرواز بلون ذهبي، وذهبنا الآن إلى النوم؟

وظل هاينريش غارقا في النوم حتى قبيل الظهر، ولم تزعجه أمه، لأنها تعرف مشقة السفر. ولما كان في غير ذلك اليوم يضيع صباح الصيف الجميل في النوم، ويجلس بعد ذلك بقية اليوم غارقا في

أحلامه وهو مرتديا منامته، التي تفوح فيها رائحة نبات الليلك والسوس، سألته أمه إن كان مريضا ؟ . . فأجابها: لماذا إذن؟ . . فقالت من المحتمل أن يكون الأمر كذلك، وقد يكون هناك أيضا من ينتظرك، ويتوق إلى رؤيتك. بيد أن هاينريش انتظر حتى انصرم يومان آخران، ثم ركب الباخرة، وفور وصوله إلى رشترزويل انقبض قلبه وفكر في العودة، إلا أنه بدلا من ذلك شرب ربع لتر أو ربعين، فانشرح على أثرهما صدره، وشعر مرة ثانية بفرحة اللقاء، والتي حدت من التفكير في أن حب إليزا قد انتهى . . ولما أراد أن يذهب على امتداد مجرى الماء القروي إلى أعلى قاصداً الطريق الزراعي، ليكتشف أنه لم يعد هناك مجرى للماء بعد، وأنه قد اندثر بسهولة، وقام على أنقاضه شارع جديد، وجد عزيمته قد فترت، فهو يعتبر ذلك علامة على عدم استقرار كل الأوضاع، ولحسن الحظ كان بئر شميث مازال موجودا، وأن عائلة بيكر كانت تغرف منه الماء، ومن حسن الحظ أيضا أنه لم يكن يجلس على السور الذي يحيط بمكان البئر كل صبيان ريشتز ويلر، بل فقط فتاة شاحبة الوجه، يزيد وجهها شحوبا كلما اقترب منها، فلما تمثل أمامها، تغير لون وجهها، فارتعشت وارتمت في أحضانه.

وقد كان الاثنان ذاهبين متشابكي الأيدي إلى أقرب منزل أمام نادي اللعب، الذي يطلق عليه اليوم "مكان الغربان" . . لو أن

هاينريش لم يصر على حمل قدرين ممتلئتين وزنهما إحدى عشر لترا . فكان يشعر بخفتهما أثناء حملهما، وكان كذلك يحس بـ إليزا كل الإحساس وهي تسبقه ببضع خطوات . لقد ذهبت بالفعل ضفائر شعرها، إلا أنه لم يفتقد ذلك فيها، ولكن كعكة شعرها الشقراء التي كانت تحملها في مؤخرة رأسها كانت تغريه، كما أن خصرها كان دقيقا للغاية، حتى أنه كان يكز على أسنانه عندما يراه. فلم يستطع أن يتذكر أنها كانت لا ترغب في مناولته الخمر عندما يشرب، إلا أنها الآن تجهزه بنفسها في المطبخ.. فهو لا يريد أن يعرف السبب الحقيقي وراء هذا التصرف، وغاية الأمر عنده أن يكون ذلك نابعا عن حب، حتى ولو كان بطريقة غير مباشرة .. فقد لاحظت إليزا أن هاينريش لم يفق كاملا من السكر، ولما لم يكن هناك ريب في أن أبيها قد يشم ذلك أيضا، فيكون عاقبة وخيمة بأن زوج ابنته قد يكون واحدا ممن يرتادون الحانات في الصباح، لذا خطر على بالها أن تقدم له مشروبا منزليا .. فلم يجلسا بمفردهما طويلا بل ذهبا إلى المائدة متشابكين الأيدي، ولم يتكلما إلا بكلمات بسيطة.

وكان مظهره جميلا عند تناوله الغداء. وكان بسيطاً في الحديث بلباقة وتجسيد عن باريس وتطرق في حديثه إلى الوضع الحرج في البلد نفسه، وشرح ذلك وهو متبصر عواقب أن تكون الأم رقولا والأب يوحنا قد لاحظا ذلك، فيقصدان حقا إنهاء التحفظ إزاء

هـانيريش كـزوج لابنتـهما . ولكـن الخبـاز والـد إليـزا كـان مـا زال مسـتيقظا وسـأل هـاينريش عـن كيفيـة سـير العمـل معـه. فقـال هاينريش:

– التجارة في الدباغة والجلود مرجحة للغاية، وتكاد لا توجد صعوبة في بيعها، على النقيض من قطاع الغزل والنسيج الناعم الذي تهدده الشركة الأجنبية المنافسة. فقال يوحنا وهو خال البال:

– إذن فلنرتب الآن ما هو ضروري، ونضعه موضع التنفيذ، أليس كذلك يا إليزا ؟ فأحمر وجه إليزا خجلا، ومسحت ريقولا دموعها . . وقال هاينريش بعد سماعه أنه لا ينصح بإقامة أسرة في هذا الوقت الحرج، الذي يجب عليه أن يكافح فيه عن قريب من أجل استقرار البلاد، وأن يضحى بنفسه إن لزم الأمر . . فشحب وجه إليزا ولم يفهم هاينريش نفسه . . وجففت ريقولا دموعها، أما الأب يوحنا فكان معجبا بنضوج عقل هاينريش وبعد نظره، لدرجة أنه أحضر في المخزن ثلاثة وثلاثين زجاجة من الخمر تكفى قرنا من الزمان.

قضى هاينريش شهر أغسطس في البحث عن موقع تجارى مناسب في مدينة زيورخ . . ثم وجده في حارة الكنيسة الكبيرة، ودعم اتصالاته مع ما أمكن من موزعين ودباغين من قريب ومن بعيد . . وقد لاحظت الأم باهتمام أنه نادرا ما يستيقظ في ميعاده

المعتاد بسبب هذه الأعمال، ولما كان أيضا كونراد الابن الآخر، الذي لم يظهر بصفة منتظمة ليتحدث مع هاينريش ويتشاجر معه، لأنه كان لا يستطيع النوم في شقتها بسهولة، كما كان يغط في النوم العميق . . أدت الأم الصلاة بمشقة وتوفيق . . وأخذ الأمر طريقه إلى الجدية في شهر سبتمبر . . وبالإشارة إلى تنفيذ تسليح عسكري ضروري حسب قرار اللائحة اليومية المبرم في العشرين من يوليو للعام الجاري بخصوص الاتحاد الخاص، فقد اصدر مجلس حرب المقاومة في زيورخ بيانا يسري على كل الذين تم تكليفهم بأداء الخدمة العسكرية بعدم مغادرة البلاد، وكان هناك مرسوما معلقا على الحائط قرأه هاينريش بدهشة، صيغته :

"بدءً من الآن وحتى إشعار بأن لا تصدر أي جوازات سفر أو تباع أي كتب تجوال." . . فجرى إلى البيت، وصاح بصوته:

- انتهى الأمر، وبدا جليا . .

وهكذا فهمت الأم إن قوات التحالف الخاص يبدو أنها في زحفها إلى زيورخ. . وظل المرء فترة طويلة مع توتره هادئا . وتم استدعاء هاينريش مرتين للقوات العسكرية في غضون أسبوعين متتاليين، وزار إليزا مرتين، وكان ينتابها الخوف المستمر أن ينسحب بساط الوقت مرة واحدة من تحت قدمي خطيبها، ولهذا تصرفت معه بكل

حب، وأعطته اهتماما بالغا غير مألوف من قبل، وكأنها في وقت تمر فيه كل ساعة على تواجدهما معا وكأنها الساعة الأخيرة.

وفي السادس والعشرين من شهر أكتوبر لعام ١٨٤٧، وهو يوم ثلاثاء، كان الجو فيه ممطرا، تم تجنيد هاينريش الساعة الثامنة صباحا إلى ثكنة جيش زيورخ وأصبح مسلحاً ويرتدي الزى العسكري. . وبعد مضي فترة قليلة تم تعيين الجنرال هنري دوفور قائداً للجيش السويسري، وبمضي فترة قصيرة بعدها عين هاينريش بسلاح المشاة، وقررت السلطات العليا الاتحادية استخدام قوة السلاح من أجل فك الاتحاد الخاص بالمقومات السبع المستعصية . . "إنه نداء الوطن الصادر إلى رجالنا البواسل، ولا شك أنهم سيلبون هذا النداء بكل سرور، متحمسين بشعور العزة والأمانة تجاه بلدهم وحب وطنهم" . .

وقد عم صوت الموت أرجاء مكان الجيش عندما تلا قائد الكتيبة عليهم استطلاع رئيس المدينة ومجلس حكومة زيورخ:

"ونحمل جميعا على كاهلنا التضحية من أجل الوطن بكل حب" فهز الجنود رؤوسهم بكل سرور مهمهمين بصوت عالي غير مفهوم إلا أنه انخفض بعد الخاتمة وهى:

"إذا كان الحاضر تكدر صفوه، فإن سحاب البرق المظلم يهيم فوقنا، فنتطلع بشجاعة إلى المستقبل ونتوكل على الله . . هذا الإله

الذي أنقذ وطننا حقا من بعض العواصف ستسود كذلك قدرته على نفس العاصفة، ويضيئها مستقبلا زاهرا مرة ثانية" . .

وها هي ثلة قليلة تصيح، ترفع بنادقها جهة الغمام، وتضع الخوذات السوداء على الرؤوس باليد الأخرى، وتلوح بذلك إلى صورة السيد الرب . . وعلى إثر هذا كادت أن تنشب الحرب الأهلية أو نشبت بالفعل.

هل أتى هاينريش إلى المعركة؟ . . لا أدري . . هل قتل أحدا؟ . . لا أريد أن أعلم عن ذلك شيئا . . ما أعلمه هو أن الشقاق بين الإخوة قد انتهى بعقد تصالح أخوي؛ لأنه لم يسقط من بين الثلاثمائة ألف رجل الذين تظلهم الأسلحة سوى مائة وأربع رجال من كلا الجانبين . . أعلم أيضا أن هاينريش قد حالفه الحظ عندما كان في إحدى كتيبتي زيورخ اللتين ارتحلتا قرب نهاية الحرب القصيرة تلك إلى ريشترسفيل على حدود إقليم شفايتس المعادي حيث ينتظر هناك القيام بعملية خاصة . . وبالقرب من الكتيبتين اتخذ هناك مسكنا خاصا فآوى في منزل والدي إليزا ومعه والملازم أول هاينريش موشج أفضل زملائه والذي قام بتقديم نفسه عند اللقاء من أمام البيت وأراد أن ينتظر بالخارج هنيهة ثم يدخل بعد ذلك فقد أراد أن يمكن هاينريش لقاءا هادئا بخطيبته وحدث ذلك بالفعل . . لقد كانت إليزا في المخبز بمفردها عندما دخل عليها في كامل زيه

الحربي وعرفته من النظرة الثانية، وقفت بعدها في ذهول وتأثر عميق بظهور هاينريش.. لقد كان يمثل شيئًا في الزى الوطني الشرفي ذي اللون الأزرق الذي يضفي عليه من الوجاهة .. قصت ذلك إليزا في هرمها وأوردته حفيدتها في الدفتر الأزرق عند عمر متأخر أيضا.. وما فك هاينريش رباط الخوذة وما وضعها عن رأسه إلا بعد المعانقة.. تحسست إليزا الخوذة الصلبة المرتفعة المصنوعة من اللباد والجلد، ثم تحسست بعد ذلك أيضا سيف هاينريش الموضوع على جانبه ورفعت يدها في فزع عندما كان هناك طرق على الباب برفق وولج هاينريش موشج، وبكل فخر عرفه بخطيبته وعرف خطيبته بصديقه ورفيقه في الحرب.. وبعد زحف سريع بالسلاح والذخيرة أسرع كلاهما إلى البحر حيث موضع المعسكر.

وفي المساء وعندما حل الظلام امتلأت المطاعم والحانات الكثيرة عن آخرها، حتى أن جنود حامية الابتسل التي تعسكر في القرية أمام المرساة أحدثوا ضجيجا، حيث اخذوا يصيحون صياحا مستديما حتى أن هاينريش أفصح عن أن الضمير الإيماني يأتيه وأنه سيخلد إلى النوم.. ولحق به موشج، وسأله هاينريش:

- كيف ترى اليزا ؟..

طرح ذلك السؤال عندما كان في طريق العودة، فأجاب موشج:

– فوق ما تتصور . . فهي تبدو كما لو كانت إحدى الفارسات، وعلى كل فهي تبدو أكثر ثباتا . . هل تتوجس منها خيفة بعض الشيء أحيانا ؟ !

– يساورني إحساس أحيانا أنني لست تماما ذلك الذي تتمناه ! بيد أنني شديد القلق عليها، فأنا أحبها حقا .

– وهي تحبك أيضا . . وإذا ما كانت تتحسسك بعناية كاملة وكذلك سيفك، فإن الأمر سيكون على ما يرام.

وفي يوم آخر أخذت القوات تصيح وتهلل، فبدأ الزحف إلى إقليم فرايبورج أيضا حيث أن الهجوم الرئيسي أوشك أن يهدد أقوى حامية للرابطة الخاصة، أي رابطة لوتسرن، وكادت القوات أن تنقل إلى ريشترسفيل حتى تقوم بشن هجوم مباغت على إقليم شفيتس المجاور فيتم إرجاف القوات المرابطة هناك وإعاقتهم عن الإسراع لنجدة أهل لوتسرن . . وعلى الرغم أو بسبب الوضع الحرج عاد في المساء الصياح والتهليل، واستمر ذلك إلى الساعة العاشرة ثم حل هدوء جبري، وأخذ هاينريش وموشج يستلذان بمشروب منوم مصنوع على الرماد الذي تخلف عن الحرائق . . وها هما يجلسان في كرب ومزاج معتدل في نفس الوقت على سريريهما .

– من المحتمل أن تقوم الفرقة الموسيقية ليلا بعمل مارش عسكري . . ماذا تستنتج من ذلك؟

– هل تقصد أنه ينبغي علينا أن نظل في لباسنا هذا ؟

– أنا سأظل هكذا بالتأكيد إما أنت فلا.

تكلم بذلك موشج وجعل هاينريش ينظر إليه نظرة غير المدرك. . ووصل موشج حديثه:

– ها هي خطيبتك قريبة من هنا، يدفئها غطاء ثقيل.

فقال هاينريش :

– هكذا الأمر ؟ !

فقال موشج مواصلا حديثه :

– أجل . . افعل ذلك .

أشار هاينريش بالرفض وهو كاسف البال:

– مستحيل لن تتركني أفعل هذا، ليس قبل ليلة الزفاف !

أجاب موشج :

– بل ينبغي عليك أن تفعل ذلك اليوم.

– ولم اليوم؟

رد هاينريش موشج قائلا :

– هاينريش، حقيقة أود أن تثبت لأبعد حد إحدى قدميك في هذه الحياة، ولكن دعني أخبرك بما هو ضروري رغم هذا . . قد نكون غدا رمادا أو قتلى.

وبعد لحظة مرت في صمت خلع هاينريش حذائه في هدوء، ثم

وقف وأدى التحية العسكرية، ثم أخذ يخلع جوربه.

وفي صباح يوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر ناورت الوحدة التابع لها هاينريش مع الكتائب الأخرى باللجوء إلى إقليم شفايتس. وفى المساء كانت قد انتهت هجمة المراوغة . . بينما كان جنود اقليم شفايتس يبكون فقد أحد الأحصنة، وفقدت القوات السويسرية رجلين، احدهما وهو قناص من إقليم بنتسل أصيب برصاصة. . واحد من نفس الإقليم، أطلقت بندقيته النار عند تعسره في عود من الخشب . . أما هاينريش فقد ظل سليما وما عاد يخشى شيئًا؛ إذ أن إقليم لوتسرين قد استسلم في مساء نفس اليوم وفي الأيام التالية تمخضت أحوال الإتحاد الخاص عن وقف الحرب وبذلك انتهت الحرب الأهلية، وعلى الرغم من قسوتها، فقد خلفت أثرا كبيرا ومهدت الطريق إلى بيئة جديدة تماما، وفي ديسمبر ما كاد يهدأ دخان البارود، إلا وقد قام هاينريش بقياس حلة الزفاف لدى كوخ ويفيستر في زيورخ وقد تكلفت أو كادت أن تتكلف ستة وستين قطعة ذهبية إن كان قد سدد ثمنها.

كان الأمر على ما يرام وبعد الإعلان ،أي بعد الإشهار العلني في الثاني من يناير لعام ثمان وأربعين، كان ليلية العرس في ذلك اليوم القارس يوم العاشر من نفس الشهر وكان الإشهار في كنيسة ديتيكون، قام به القس الذي خلف والد هاينريش حيث سجله

ودونه في سجل تعميد وزواج ووفيات شعب كنيسة أوردف ديتيكون كالتالي: النكاح في يوم العاشر من يناير بـ "ديتيكون" : السيد هاينريش بلونتشيلي من زيورخ، ابن السيد القس والآنسة إليزابث بفيستر من ريشترسفيل.

إليزا لا تدعى في الواقع باسم بفيستر فهي تشتهر بلقب شميت وعلى الرغم من هذا هي ابنة خباز وذلك ما جعل القس يقوم بهذا التدوين الخاطئ، لأن خباز تعني في اللاتينية بيستور وعلى هذا فإن الخباز كان يسمى في السابق بفيستر هكذا أو هكذا فإن المرء مضطر لملاحظة أن كل شيء من البداية غير صحيح، فتدوين خاطئ في سجل الوفيات وحلة الزفاف بالاقتراض والاستدانة . . فإذا كان المتكلم مجنونا فعلى السامع أن يكون عاقلا.

ومن ناحية أخرى فكم كان جميلا ومبشرا ذلك البيت الشعري الذي كتبه أحب إخوة إليزا إليها على لوحة خشبية من سيقان شجر اللبلاب حيث علقت على مدخل البيت في حارة أوتنباخ.

حللتما أهلا أيها الزوجان الحبيبان.

فلتسعدا ببعضكما على المدى الرحيب.

وكم سعدت إليزا بهدية هاينريش لليلة الزفاف، سعدت بصورته التي عشقتها عشقاً كبيراً، والتي يضفي إطارها الذهبي على صاحبها شيئًا من الثقة ووقار رب البيت . . وأخيرا وهذا مما يجوز للمرء أن يبرزه كسمة حسنة: كم مرت الليالي الأولى في هناء وانتشاء، وكم كانت نهاية أشباح الغريزة نهاية مريحة.

وبعد أسبوعين من ليلة الزفاف توفى أخو إليزا المحب لها والبالغ من العمر تسعة عشر عاما . . لقد تجمدت الأرض، وقد تغيب هاينريش عن حضور الدفن، لما ألم به من وجع في الأسنان . . وكأن الموت كان يقف خلف أجمة يحدد من سيلحق به وهم: والدة إليزا وأخو إليزا الكبير وأختها الكبرى . . كانت الفترة قصيرة، لقد اختطف الموت الثلاثة في شهر يونيو.

الفصل الثالث عشر

ربما ترجع صحة أسطورة المشاركة الفعلية لهاينريش في بناء قناة السويس عن طريق الاستدلال المضاد. لأنه من الثابت أن قناة السويس كانت جزءً من رحلة هاينريش إلى مصر.. ولنأخذ مدينة الإسماعيلية مثالا على ذلك، هذه المدينة التي تقع بين مدينة السويس ومدينة بور سعيد في منتصف البرزخ على الشاطئ الشمالي لبحيرة التمساح التي تشقها القناة شقا.. ومدينة الإسماعيلية التي سميت على اسم الخديوي إسماعيل باشا هي هبة القناة، وقد بنيت على رمال السواحل الصفراء؛ فالعمال والجمال والحمير وخاصة المتخصصين كانوا يحتاجون إلى مساكن وخدمات أساسية وبعد ذلك وصل نهر النيل العذب إلى مدينة الإسماعيلية عبر قناة المياه العذبة الممتدة من القاهرة عبر الصحراء الشرقية، فأصبحت بقعة خضراء، وأصبح لدى الجميع ماء عذب يشربونه.. وعندما افتتحت قناة السويس في نوفمبر عام ١٨٦٩ كانت الإسماعيلية بالفعل مدينة

فرنسية صغيرة هادئة، بها بضعة آلاف نسمة وقصر ملكي وكثير من الفيلات الجميلة، كانت أجمل فيلا ملكا لـ فرديناد دليسبس، وبطبيعة الحال كان للمدينة مبنى بريد كان هاينريش يقيم فيه، فتم بناؤه حسب الخديوي وعين السيناتور موتسي- الإيطالي الجنسية، ومدير عام البريد المصري آنذاك – جدي الأكبر في مركز مدير أول بريد في الإسماعيلية ومفتش على هيئة البريد في منطقة القناة بأكملها .

كان أول شيء لاحظته عندما كنت أمشي باتجاه دش الاستحمام في الفندق الواقع جنوب شرق وسط المدينة قطةً سوداء ذات ذيل اسود ميتة على حافة شارع محمد علي، والشيء الثاني هو أني قد لاحظت أن مياه القناة التي تمر موازية لشارع محمد علي كانت ملوثة للغاية، وكانت قد تلوثت منحدراتها . . ثم نظرت إلى الجهة اليمنى خلف سور منخفض يبتعد بضعة أمتار عن الشارع، فشاهدت فيلا دليسبس، ولأنني شاهدت من قبل رسومات لمنازل على شكل شاليهات عرفت في التو أن البيت يتعلق بالسكن الوحيد الذي لولاه ما وجدت الإسماعيلية، رغم عدم وجود أي لافتة أو أي إشارة على ذلك، كانت بوابة الحديقة مغلقة وكذلك دلف النوافذ، لم يكن ثمة علامة على تدهور المبنى، اللهم إلا أنه هناك فقط خمس نخلات مزروعة أمام المنزل والتي طليت جذوعها باللون الأبيض، وكانت اثنتان منهما بدون فروع، تقفان مثل منارتين.

ولم يكن هناك لوحة تذكارية لمؤسس قناة السويس، وكنت أفكر في مواصلة السير ووأد الأمل الدفين عند مبنى البريد الضخم أو فيه، والمبنى مازال موجودا في مكانه الأول كما ظهر لي من مقارنة إحدى خرائط المدينة التي تعود إلى زمن المؤسس مع أحدث خرائط بيدكر، وهناك توجد لافتة تذكارية بمؤسس بريد الإسماعيلية.

ولقد استطعت أن أفهم أيضا من مقارنة الخرائط أن الشوارع والأماكن في المركز القديم للمدينة تسمى اليوم بمسميات أخرى، وهي تقريبا في موضعها لم تتغير، وكلما تجولت في ميدان شمبليون سابقا – ميدان الجمهورية حاليا– بما فيه مبنى البريد كلما استحوذ علىّ عبق المكان، ليس فقط لأني كنت دائما أرى المباني ذات الدرابزينات الخشبية الذي كان يجلس عليه هاينريش وكاترينا ومن حولهما يلعب أبناؤهما كارلوس ورودولف وجورج وماريا، ولكن أيضا بسبب جو المكان الذي أحسست فيه بالاسترخاء وكأني أحلم، ولم يكن عندي أدنى شك في أن هاينريش قد عاش أجمل سنوات حياته في تلك المدينة الخضراء الجميلة، وأنه قد لعن اليوم الذي اكتشف فيه الملح عند الشلوفة وما جره عليه من عواقب معروفة، فليته يتشمس في مدينة الإسماعيلية حتى نهاية حياته، وليته تكتم على موضوع الملح، إلا أنه بدلا من ذلك أخبر عنه أحد أبناء البلد وهو شاهد تعميد ابنه تشارلز، الذي كان بالإضافة إلى ذلك يشغل منصب حاكم

مناطق ساحل البحر الأحمر، واسمه فرنر مونتسجر، وكان مونتسجر باشا قد أخبر الخديوي عن الملح وما إلى ذلك من الأحداث المعروفة. . وقبل نحو عامين من هذا التوقيت كان هاينريش سيغير وظيفته في البريد ليعمل بمنصب أكثر ربحا في إدارة القناة، وهو المنصب الذي عرضه عليه دليسبس شخصيا، كان سيمكنه من المعيشة بالإسماعيلية حتى نهاية عمره.

وبدلا من ذلك احتفل هاينريش بانتصار الجيش الألماني على الجيش الفرنسي بإشعال بعض الألعاب النارية على الرغم من أن صديقيه – وهما مدير خدمة التلغراف الخاص بالقناة هنري دوكروتس والساعاتي لويس كابتشي– أرادا أن يمنعوه بشدة من هذا الاحتفال، بيد أن قلب الوالد كان ألماني الهوى كما جاء في خطاب تشارلز، إلا أن دليسبس الفرنسي الحساس تأثر بذلك على الرغم من علاقته القوية ببلونتشلي، وما هي إلا أيام قلائل بعد هذا الاحتفال، وقد تم احتلال المكان ذاته من طرف آخر. . أما الوالد فقد ظل يعمل في مبنى البريد، ويستطيع المرء أن يتفهم أسباب هذا الاستفزاز من جانب هاينريش عندما يدرك أن مدينة الإسماعيلية كان يغلب عليها في ذلك الوقت الطابع الفرنسي، فثلث السكان كانوا أوروبيين، وأكثرهم من الفرنسيين، حتى هاينريش نفسه كان يعدّ في ذلك الوقت من الفرنسيين، أو على الأقل من رعايا فرنسا، فقد تخلى عن الحماية

النمساوية، طوعا أو كرها، ودخل تحت رعاية القنصلية الفرنسية. . قد فعل ذلك، فكل ما قام به كان مفروضا عليه ولم يكن بمقدوره أن يفعل سواه، لذا انحني أمام التيار الجارف، كما يشهد على ذلك حاله مع كاترينا الأم الحنون لأولاده فقد عاش معها طيلة عشر سنوات من الزواج العرفي قبل أن يذهب إلى القنصلية الفرنسية ليوثقه في الثالث من ابريل لعام اثنين وسبعين بمدينة الإسماعيلية، ومع أن هذا الزواج لم يتم في الكنيسة، إلا أنه أخذ شهرته بين الناس، ولما كان هاينريش رجلا متدينا لم يطمئن لهذا النوع من الزواج، ولذا أعاد تسجيل عقد قرانه بزوجته كاترينا مرة أخرى بعد تسعة أعوام في القاهرة لدى الكنيسة، وهذا ما جعل موظف الأحوال الشخصية في مدينة زيورخ يسجل هذا العقد بالقلم الرصاص ثم يردفه بإشارة كذلك بالقلم الرصاص:

"إن التصديق الأول لهذا العقد تم بواسطة القنصلية الفرنسية في الإسماعيلية وهو معتد به، وثمرة هذا الزواج وهم الأولاد الثلاثة أولاد شرعيون بناء على تصديق عقد الزواج بين الأب والأم"

ولم تذكر مريم ابنة هاينريش لأنها لم تعش طويلا، فهي مثل أختها هيرمنه التي ولدت ميتة، ودفن الاثنان معا في أرض الإسماعيلية الرملية.

ظل هاينريش مؤقتا في مكتب البريد، الذي يقع في ميدان الجمهورية، وها أنا اقترب منه كما يقول المثل اقتراب الظمآن من نبع

الماء، غير أني كنت اقترب ببطء فالمكان مربع ومحاط بالأشجار، ويبدو كما لو كان حديقة صغيرة، وتكاد تكون الحركة المرورية حول الميدان معدمة. . في هذا المكان جلست على أريكة بيضاء، . كان بوق البريد ظاهرا في الركن الشمالي الشرقي، ولكن لا أرى مكتب بريد بل أرى مبنى مزركشا مرتفعا، وهو بالتأكيد مسجد . . نهضت من مكاني وأخذت أبحث حول هذا المكان، حينئذ وجدت رجلا يتحدث الإنجليزية، فأكد لي أن مبنى البريد تم إزالته وتم تشييد هذا المسجد مكانه، وكان ذلك منذ سبعة أعوام تقريبا .

كانت ظلمة المساء مطبقة. . جلست لفترة طويلة جدا في شرفة غرفتي في الفندق الذي أنزل به وأخذت أنظر إلى بحيرة التمساح وما وراءها، وكلما غابت البحيرة عن عيني سمعت صوت أمواجها المتلاطمة. . ساعتها لم يكد أحد يسمعني، ولكني كنت أنا من يسمع، فلقد كانت الضوضاء شديدة وصوت موسيقى الاحتفال صاخب، ومع ذلك لم يصل إليّ شيء من هذا الصوت ولا حتى في الليل، فالشاطئ والمدينة كانا مضاءين بمصابيح إنارة كثيرة جدا ولمبات كهربائية وصواريخ نارية، وكل هذا كان بسبب الاحتفال بالانتهاء من تحضير القناة التي لم تكن – كما يقول ضيوف الشرف – معجزه تقنية فحسب، بل أيضا رمزا واضحا للعولمة أو ارتباط الشعوب بعضها ببعض – نشبت الحرب الفرنسية الألمانية لاحقا بعد

ثمانية شهور- كان ذلك كله على شرف دليسبس العظيم الذي بلغ ذروة المجد، حتى وإن لم يكن محور اهتمام الحضور، وكان الأمر كذلك على شرف الضيوف أصحاب الوجاهة والرفعة، وهم كبار الزوار الوافدين من بور سعيد في يخوت وفرقاطات وسفن صغيرة، تصحبهم فرقة من سلاح الفرسان، مرتدين حللا جديدة، ويمشون وسط طريق محمد على تحفهم من الجانبين أشجار مغروسة حديثا، حتى يصلوا إلى قصر الخديوي، منهم من يستقل عربات التشريفة، ومنهم من يمتطي جوادا، ومنهم من يركب جملا مثل القيصر النمساوي فراتس جوزيف وملكة فرنسا اوبجيني- وأذكر قبعاتهم الرائعة المصنوعة من القش - أما ولي العهد البروسي فريدرش وحاشيته فرغبوا في المشي على أقدامهم، وأما ولي العهد الإيطالي أماديوس فقد قدم في هودج محمول، وحضر كذلك كل من أمير ويلز وهاينريش أمير هولندا، كل هؤلاء من أصحاب المقامات الرفيعة في دول أوروبا تمت دعوتهم، وبلغ عددهم ستة آلاف، وفوق ذلك حضرت مجموعة كبيرة من زعماء العالم العربي ومن دونهم، حتى مجلس الشيوخ السويسري الممثل في أربعة من أعضائه بالإضافة إلى ملحقهم العسكري، جاءوا وهم يمتطون الحمير مخترقين مدينة الإسماعيلية، فكانوا ملفتين للأنظار خاصة بصفرة الوجوه التي تميزهم.. يا الله! كانت مناسبة فخمة ومعجزة، صخبها لا يطويها

النسيان أبدا، فما تلاطمت الأمواج بفخر وسرور في يوم عظيم كهذا اليوم.

وتوقف تلاطم الأمواج للحظة، فتساءلت في الحال: هل رأى أحد بلونتشيلي أيضا ؟ . . بالطبع نعم، فهو مدير مكتب البريد المحلي، الذي يعرج عرجة خفيفة، وهو عضو في اللجنة الخاصة المسؤلة عن استقبال وتسكين الضيوف في الألفين خيمة المتواجدة على الأرض الواسعة، الواقعة بين البحر وترعة المياه العذبة، وكذلك في الحديقة العامة الخاصة بالقصر، حيث يتم تناول الطعام على مائدتين مطولتين، وهناك خمسمائة طباخ يطبخون ويشوون ويحمرون. . وبلونتشيلي الذي نسأل عنه لديه كثير من الأعمال يجب أن ينجزها، وهو يتصبب عرقا في قبعته الأسطوانية. وفضلا عن ذلك انشغاله بعمله الإضافي كمفتش على خمسين منزلا صغيرا مبنية بالغاب والبوص، حتى أنه غالبا ما يجعل كاترينا تحضر المأدبة الليلية وحفلة الرقص في صحبة كلاً من السيد رفيليود وريتر و كارل و فيرتس، وهم المبعوثين السويسريين، الذين ينتظرون دورهم للرقص مع كاترينا بالرغم من كبر سنهم وألم مؤخراتهم من امتطاء الحمير . . سحرت كاترينا الأربعة، ليس بجمالها وشبابها فحسب - فحولهم مئات من الفتيات الجميلات - بل بسبب هالة إشراقها المتناقضة التي تتميز بها، فعيونها تُنمّ عن عفتها، أما رقصها فينطوي على تمنع رقيق، وأثناء

رقص السادة مع كاترينا وتحدثهم إليها، كان هاينريش يشرف على أكواخ الغاب والبوص، ومن قبلها كذلك المواقع المصرية.. وبعد مرور ساعة من الوقت إذ بـ هاينريش يصطدم بـ دليسبس أثناء سيره، وهو يترنح مرتديا قبعة صغيرة، ويعرف أحدهما الآخر منذ فترة بعيدة، فدلسيبس كان أفضل عميل لدى مكتب البريد، ومع ذلك تعجب بلونتشيلي أن دليسبس حياه وهو سكران كما لو كان صديقا حميما، وتسامر معه برهة من الزمن وعبر له عن تقديره له، ثم أردف قائلا:

– أليس لديك من الأولاد ثلاثة، وتستقبل الآن الرابع حفظه الله، وأنا يسعدني أن أكون شاهدا يوم تعميده.

اندهش بلونتشيلي وأخذ يتحدث عن عظيم الشرف ولكنه قبل أن يخبره أن الطفل قادم للدنيا بعد قليل، انصرف العجوز دليسبس مسرعا، وبلونتشيلي ينظر إلى أثر الضوء في شعره الأبيض.

نعود إلى المائدة السويسرية، حيث مقابلة كاترينا الملفتة للأنظار، وحيث السلطان التركي عبد العزيز خان الذي تقع مصر تحت حكمه، والذي تعطف على وفد مجلس الشيوخ السويسري بزيارة اسطنبول قبل توجههم إلى مصر، وقد اتفقوا على تسمية هذه الزيارة باللقاء العظيم رغم أنه لم يستمر أكثر من ثلاث دقائق!.. ونعود إلى المائدة السويسرية حيث يحكي هاينريش عن مقابلته مع دليسبس،

والجميع يرفعون كؤوس الشمبانيا ويتبادلون التهاني ثم يعودون إلى حديثهم عن اللقاء العظيم، وقد عبر كارر البومبلتسي ممثل مجلس الأمة القادم عن رغبته في أن يكون عراباً للمولود بعد القادم، ولكن بشرط أن يسمى باسمه، ألا وهو شارل، وهذا ما جعل بلوتشيلي يقول: كارل أو شارل موجود بالفعل، وهنا قال الكولونيل ريتر:

– إننا نريد كالعادة أن ننشد أغنية من أغنيات بلادنا لحرمك المصون الجميلة، التي لا تعرف وطننا الجميل، ولكن أي أغنية تحب أن تسمع؟ فلننظر في الاقتراحات يا سادة، وبعدها سيتم التصويت بشفافية!

فاقترح ممثل مجلس الأمة وتاجر القطن فيرتس الميليني أن يتم اختيار ضابط الآلات الموسيقية قبل أخذ الآراء، وهنا صاح الكولونيل كارير قائلا بأنه طلب اختيار سري وقال ديستر: هيا! ولكن أرغب في طلب مضاد لهذا، وهو أنه من الواجب أن تؤخذ الآراء مسبقا.. وسأل أحد الجالسين: ولكن ما الحل إذا تشابهت الأصوات؟.. فأجاب ديستر: أوه! أليس هناك رئيس يحسم القرار، ومع ذلك فأنا مستعد لهذه المهمة، فقال رئيس الوفد دفيلينو:

– من رئيس الوفد هنا؟..

قال فيرتس:

– نحن لدينا الآن متنافسين وهذا يجعل الاقتراح السابق

ضروري. .

هكذا ظل الأمر معلقا، ويبدو أنه لم يلاحظ أحد أن كاترينا لم تصغ إلى مناقشتهم، فقد جلست مكفهرة متحجرة منذ عودة هاينريش إلى المائدة.

تساءلت في نفسي وقد أتاح تلاطم الأمواج لحظة صمت فقلت: ألم تكن سعيدة؟ . . بل على العكس من ذلك كان عرض دليسبس مفزعا ومزعجا لها، ومن كان على علم بالواقع فلن يتعجب من ذلك، ففي الحقيقة كان فرديناد دليسبس يتمتع بطاقة لا مثيل لها وقوة إثارة تضفي عليه جاذبية جنسية، على الرغم من أنه حينذاك كان في منتصف الستينات من عمره، وفي هذا المكان أثبت هذا العجوز قدراته، كما أنه أقام أسبوعا في كنيسة الإسماعيلية الصغيرة بعد افتتاح قناة السويس مع زوجته هيلينا دي براجارد التي ما كادت تشتكي من شيء، اللهم إلا قوته التي جعلتها تقوم بما تقوم به أم لاثنتي عشرة من الأولاد.

وفي صيف عام تسعة وستين قبل افتتاح قناة السويس كانت هلينا في مدينة باريس، وكان بلونتشيلي بمدينة لندن مكلفا من الحكومة المصرية بشراء أربع بواخر صغيرة تعمل كناقلات بريد بين الإسماعيلية وبور سعيد . . وباختصار وبدون تفاصيل، عرف دليسبس في هذا الوقت كيف يقترب من كاترينا، وكان من قبل ينظر

إليها بعين الوالد . . أخذ يتقرب إليها أكثر فأكثر حتى وقعت في حبال جاذبيته رغما عنها، ولم تلبث أن أحبته، ودون أن تعي ما يحدث لها ارتمت في صدره . . والنتيجة التي لم يكد أحد أن يعرفها عند افتتاح قناة السويس كانت طفلة اسمها ماريا . . أما بلوتشيلي بسذاجته فلم يعر الأمر اهتماما، وكان سعيدا بالطفلة الصغيرة، ولم يكن بوسعه أن يفهم: لماذا تعارض كاترينا أن يكون دليسبس عرابا لـ ماريا ؟ . . إلا أن دليسبس كان بالفعل الشخص الذي أوقف ماريا على حجر التعميد، وعندما ماتت ولم تكد تبلغ ثلاث سنوات من عمرها شعرت أمها بالحرية على الرغم من عظم فجيعتها في ابنتها .

وقفت وأنا أترنح، ثم تحركت إلى درابزين الشرفة، وأخذت أنصت وأمعن النظر في سطح البحيرة الأسود ساءلت نفسي بصوت خافت: هل ثمة مصدر لكل هذا ؟ . . مصدر ؟ . . وهل يجب دائما أن يكون ثمة مصدر لكل شيء ؟ . . أفلا يكفيك تلاطم الأمواج؟

وكانت الثلاجة المتواجدة بالحجرة تعمل برهة من الزمن ثم تتوقف من نفسها . . وفي كل مرة يتوقف أزيزها أو يبدأ، تسري فيها رعشة فتصطك زجاجات المياه ويسمع لها صوت هادئ، وبمجرد أن هدأ الأزيز والاصطكاك تنبهت لما هو أكثر إزعاجا وهو أزيز ناموسة جعلتني أجلس في السرير متربصا اقترابها مني، وهبوطها على رمش

العين أو الوجنتين أو الأذن كي أضربها بيدي، فأخذت أنصت لأسمع أزيزها، وأسمع كذلك إلى صوت الثلاجة وما كدت أنام في ليلتي تلك.. واستيقظت في الصباح خائر القوى، فتناولت وجبة الإفطار وأنا انظر إلى بحيرة التمساح، وقافلة سفن تمر بشحنتها بمحاذاة مرمى البصر، وهنا تاقت نفسي إلى الغربة مع أنني كنت فيها بالفعل، وقد أفزعني الأمر نوعا ما.

وما زالت توجد بشارع محمد على تلك القطة الرمادية ذات الذيل الأسود، وكأنها لم تكن في نفس حالة النفوق التي كانت عليها بالأمس، والذباب يحوم حولها؛ وعندما كان الذباب يهبط على عينيها، ترى وكأنهما مغلقتان .. واصلت سيري في طلب حاجتي، فتوقفت في صالة بمبنى البريد الجديد، وطلبت من أحد الموظفين أن يرافقني إلى المدير، ففعل أحدهم ذلك بعد استشارة زميل له، وأقلنا المصعد إلى طابق علوي.. كان الجو شديد الحرارة، لذا جعلوا أبواب المكاتب مفتوحة، وقبل أن استجمع أفكاري رأيتني عند المدير يستقبلني خلفاء هاينريش بكل ترحاب.. فقدمت نفسي باللغة الإنجليزية بأنني ابن حفيد المدير الأول لمكتب بريد الإسماعيلية، ثم سألت عن وجود سجل ضخم أو حتى مستندات من ستينات وسبعينيات القرن المنصرم، وبدا أن المدير كان ينصت إلىّ باهتمام، ثم أرسل كاتبا إلى سيدة، فقدمت السيدة مسرعة ثم سألتني عن

مطلبي وهى ترتعش فكررت ما قلت مرة ثانية، ثم أخذت تترجم الورقة المسجل عليها ما يخصني في الأرشيف القومي، الذي سجل فيه أماكن ووظائف هاينريش بالقاهرة، أخذت تقرأ ما في السجل، وهي تبادلني نظرات الاحترام، وبعد حوار لم يدم طويلا قامت باستدعاء أشخاصا آخرين، كانوا قرابة العشرة، يتناقشون بحماس شديد في مكتب مدير البريد، وعلى الرغم من أنه كان بالنسبة لي أن اجتماع تلك الآراء المختلفة أمر غير مصدق، إلا أن الاجتماع أسفر عن قرار متفق عليه ونتيجة موحدة، وقد أخبرتني تلك السيدة المتحدثة أنه لا يوجد في الإسماعيلية للأسف سجلا للبريد، ولكن القاهرة بها متحف للبريد، ومدير هذا المتحف سوف يلبي حاجتي، وهكذا أنصت إلى نصيحتها بأدب جم، وقدمت لها الشكر بكل أدب وامتنان، ثم ودعتها مصافحاً دون أن يخطر ببالي أن أقول لها أنني مع كل ذلك لم أحقق رغبتي بعد .

وبعد زيارة المتحف الجيولوجي في القاهرة، وجدت نفسي في متحف البريد، الذي يزوره عشرة أشخاص في الأسبوع تقريبا، وكأني كنت لمدير المتحف نوعا من التسلية، فقادني مباشرة إلى تحفة رائعة، تبلغ مساحتها خمسة أمتار في خمسة أمتار، وترجع إلى نهاية القرن، كان بها رسم للأهرامات وأبي الهول وآلاف من الطوابع المصرية القديمة، فكم تأثرت بذلك، وكل ما وضحه لي مدير المتحف

بخصوص موضوع بلونتشيلي لم يكن ليساعدني في تحقيق هدفي، فهاهنا تقريبا كل الأنشطة البريدية منذ ذلك الوقت محفوظة في الأرشيف القومي، بل كل محتويات البريد محفوظة في قاعات خارجية واسعة، وصناديق الطوابع في أجولة بالية من الكتان، وكذلك نماذج لأبنية ومكاتب بريدية، مثل هذا النموذج الصغير لهذه السفينة البريدية التي كانت تسمى كاترينا، والتي كانت تبحر في الأساس بين الإسماعيلية وبور سعيد . . كل هذا ولم أصل بعد إلى مرحلة اليأس، ولكني كنت على يقين أنني الآن فقط استطعت أن أطوي فصل البريد . . أخذت أسير في شوارع الإسماعيلية باتجاه الفندق متفقدا الجانب الشرقي لضواحي المدينة، وفجأة وفي أحد الأحياء الهادئة الفارغة شاهدت حديقة مزهرة محاطة بسياج من أسلاك شائكة، وبها فيلات مرممة، كانت تشير إلى عصر غربت شمسه، عصر كانت الكلمة فيه للفرنسيين ثم من بعدها للإنجليز، ربما كان هاينريش نفسه يعيش في هذا الحي، وهناك في تلك الشرفة الخشبية الزرقاء كان يعلم أبناءه الاعتماد على النفس، ويقول : كل إنسان حسب إمكانياته . . بهذا كان يؤمن تشارلز، ابنه الأكبر الذي التزم الصمت إزاء حياة عائلته.

عندما وددت أن ألتقط صورة لتلك الفيلا الخاصة ببلونتشيلي، اندفع إلي أحد حراس المبنى بجوار مدخل الفيلا، وقد ظننت أنه لا أحد يسكنه على الإطلاق، وأخذ يصيح قائلا : "ممنوع التصوير"،

وأشار إليّ بإصبعه. . ابتعدت ولكني ظللت واقفا أمام مبنى آخر يقع قبل هذا المبنى، كان واسعا أبيض له أعمدة، وأخذت أتساءل: هل كان هذا في السابق هو القصر الملكي؟ . . فالذي يفترض أن يكون هذا موقعه، ولا يزال قائما إلى الآن على خلاف المتوقع، إنه – كما هو واضح – أثر حديث البناء، يوجد فيه متحف أثري بسيط، ولكنه جميل، لم استغربه وأنا أتجول فيه، بل كنت سعيدا بهذا المزيج من القطع الأثرية المنتمية لحضارات وحقب متنوعة بطريقة عشوائية، ولم تكن قطعا نفيسة: فهذا الجعران الفرعوني بجوار البروش الروماني، وقارورة العطر العربية بجوار تمثال إغريقي يبرز منه قضيب مقصوم. . وقبل أن أنصرف سألت مديرة المتحف عن قصر إسماعيل باشا، فقالت:

– هنا بجوارنا في الحديقة . .

ثم سألتها:

– هل يمكن لي أن أزوره؟ . .

فقالت:

– لا غير مسموح بذلك، لأن القصر يسكنه قيادي بارز بإدارة القناة. .

فطرحت سؤالا آخر:

– كيف أدخل منزل دليسبس، المبني الذي على شكل

متحف، على حد علمي؟ . .

فقالت:

- ستحتاج إذن إلى موافقة خاصة من إدارة قناة السويس.

وكان القصر يرى بالكاد من الشارع، إذ أن الأشجار والأجم كانت تغطيه، فسألت حراس البوابة الحديدية: هل يسمح لي بالاقتراب لتفقد القصر من الخارج؟ . . فأحضروا لي ضابطا برتبة مقدم يرتدي ملابس مدنية، فصدني صدا شديدا . . وفي مبنى إدارة القناة الضخم، حيث كنت أبحث في متعلقات دلسيبس، كان الأمر أسرع، فقد رافقتني امرأة إلى هذا المكان، لتخبرني بأن منزل دليسبس لم يعد بعد للزيارة، ولكنها لم تذكر الأسباب . . فقلت:

- خسارة!

- فوافقتني الرأي.

ولما حل الظلام عبرت القناة بواسطة المعدية، ثم جلست شارد الذهن على الجانب الآخر، حيث صحراء سيناء، وهناك مكثت حتى خيم الظلام.

الفصل الرابع عشر

كان الندى رطبًا ودخان المدخنة يتطاير منه شرارة لامعة عندما وصل كل من هاينريش وإليزا إلى مقر السفينة، كانا آخر الجالسين في الدرجة الأولى تحت المظلة المخططة باللون الأزرق والأبيض حماية من أشعة الشمس الحارقة، ارتدى هاينريش بذلته السوداء التي ارتداها من قبل في حفل زواجه منذ خمسة أشهر والتي أصبحت ضيقة نوعا ما، لقد بدأ وزنه يزداد رغم أنه لم يدفع ثمن البذلة حتى اللحظة. . . تأخر الزوجان بسبب مشاجرة قامت بعد أن اختلفا على ثمن التذكرة من زيورخ إلى ريشترزفيل هل هي ٢٠ باتسن أم ١٤ باتسن فقط كما تدعي إليزا ؟ وكان السؤال الثاني الذي عطل حضورهما هو، هل الأفضل الدرجة الأولى أم الثانية ؟ . . كان الاثنان يدركان أهمية ذلك السؤال والغرض من هذه الرحلة، لهذا تشددا في موقفيهما حتى تعبت إليزا من الجدل والآلام الذي تشعر به وأخبرها هاينريش:

– أولاً أنت في الشهر الخامس ولا يجب أن ننسى من نحن إذن.

كانت شمس العصر مشرقة وليس هناك أية عاصفة ولكن رياح لطيفة كانت تحرك البحر والمركب، شعر هاينريش براحة ووضع ذراعه بحنو على كتف إليزا وهمس لها قائلا:

- أنني أكن لك الحب وأود أن أحافظ عليك طوال الوقت.

قالت له:

- آه يا هاينريش

ألقت برأسها فوق كتفيه. لم يدرك كم الإعياء التي كانت فيه، نظر نحو البحر ثم سأل بعد صمت طويل:

- هل كنت تعتقدين بأننا سوف نرى البحر يوماً؟

كان وجه إليزا شاحباً وقالت في ضعف:

- كفانا من البحيرة

شعرت فجأة بالغثيان تمسكت بالمدخنة ثم وضعت يدها اليسرى على فمها وأفرغت ما في جوفها بعدما خطت بعض الخطوات إلى الأمام ظل هاينريش جالسا من في توتر شديد، كان ينظر إلى العلم السويسري الذي تمسكت به إليزا بقوة. أعطى البحار لإليزا منديله المعطر الذي أخرجه من جيبه فأخذته ومسحت به جبينها وفمها . . وقف هاينريش لأول مرة بعد هذه الصدمة ليساعدها فأبتسم له القبطان وكان عدوه القديم "يعقوب تريشلار" . قاد هاينريش زوجته وهو متصلب إلى مكانهما مرة أخرى دون أن يمسك يديها . . نظر إليها ليطمئن عليها ووجدها قد تحسنت فجأة بسبب منديل هذا التريشلار المبلل الذي أعاد هذا الجسد المنهك إلى رونقه. قالت له برقة:

- شكراً يا يعقوب

ظلت الكلمة عالقة بأذن هاينريش، وبعد حوالي ساعتين من سير المركب لاحت على بعد مرمى البصر على شاطئ شبه الجزيرة وجهه القبطان المركب في اتجاه الخليج على الناحية العكسية أمام فندق الثلاث ملوك، نزل هاينريش وزوجته من المركب يحاولان التمسك من الصدمة كانت إليزا خجلة للغاية. . . وكانت بعض السيدات يأتين إليها ويشددن على يديها ويقولن لها هذا ما حدث وهذا ما يحدث دائما . ثم ابتسمت إليزا وهى تنظر إلى بطنها وتقول يبدو أن الجنين في حالة نشاط. . . قام الأب يوهان، هذا الرجل الجاف بتحية ابنته وزوجها بصوت خفيض لا يكاد يسمع. . بفتور وانكسار ذهب إلى مرقد الموتى ثم عاد مره أخرى كان اليوم مازال نهارا ولكن الغرفة كانت مظلمة. أربع شماعات تضيء النعشين، اللذان وضعا في وسط الغرفة والوجهين الشاحبين لكل من الأم والابن. لم تتماسك إليزا، كانت تهرول إلى الأم ريجولا والى الأخ هانس ومن الأخ هانس إلى الأم ريجولا .

أخذت تصرخ عليهما، وألقت بنفسها على ذراع هاينريش ثم سقطت على قارعه الطريق. حمدا لله أن أختها الكبرى والتي تدعى ريجولا أيضا مازالت علي قيد الحياة وتمثل دورا مثل دور الأم، واستطاعت أن تحتويها بعض الشيء ولكنها ارتعدت وبدأت

هي الأخرى في الصراخ:

– أنا أيضاً، سيدي وربي، أنا أيضا، ماذا، ماذا يتبقى لي؟

تماسكت إليزا في نفس اللحظة التي فقدت فيها أختها تماسكها وظهرت عليها أعراض الحمى. ونادت على ريجولا اشعر بالدوخة والصداع تماما مثلما شعرت في البداية. قال الأب بصوت منخفض من غرفته:

– لقد جننت يجب أن تهدئي من صراخ أختك. لقد شبعا موتا وكلنا متأثرين، .

صمتت الابنتان وكان هاينريش صامتاً منذ البداية، ثم أصبحت ريجولا الأخت طريحة الفراش تهذى غائبة عن الوعي، بعد الدفن بثلاثة أسابيع. فقط نجا كل من الأب وابنته إليزا وروزيتا في البيت من وباء التيفود، الذي رمى ثقله فقط على منزل هذه العائلة دون غيرها.

بقى كل هاينريش وإليزا طوال الليل يحرسان النعشين، وأدرك هاينريش مدى تأثر فقدان إليزا لأحبائها مع تنهدها المستمر في البكاء من وقت إلى أخر وهي تتحدث للمتوفيين عن جنينها وحركته ونشاطه. .هل سيكون ولداً أم بنتاً، في كل مرة كان هاينريش يقول لها "كل عطايا الرب طيبة" لكنه قال هذه المرة أنه يفضل أن يكون المولود بنتاً وأنه ليس لديه تفسير لهذه الرغبة، قالت

إليزا أنه لديها نفس الشعور ولكنها تريد ولداً، أخبرها هاينريش أنه يعرف أنها تفضل أن يكون المولود ولداً اسمه يعقوب ولكنه يفضل اسم تيودور، واستفسرت إليزا عن الاسم أن جاء المولود بنتا، فأشار إلى التابوت وقال:

- سيكون على أسمها

صباح يوم الاثنين الموافق السادس عشر من يونيو عام ١٨٤٨ وقف معظم أهل القرية وعدد غفير من الحاضرين من خارج القرية أمام منزل شميت لحضور جنازة الأم والابن، يلقون على نعشيهما الزهور ويصلون من أجلهم، وكان على التابوتين غطاء اسود بعدما وضعا في فناء المنزل.

صمتت الهمهمات والكلمات عندما ألقى السيد مدير المدرسة ورئيس المدينة كلماته لتعزية السيد يعقوب والأقارب ثم ذكر المتوفين بالخير في كلمات وجيزة. قال مختتما لكلماتهم قائلا:

- إن ساعة الموت قد تأتي مبكرة، لكنها بيد الله وهو الذي يحددها.

تحركت الجنازة حامله الأم والابن في طريق الصاعد المؤدي إلى الكنيسة بقياده الأب القس فزى ومن خلفه الأقارب. فقد هاينريش التركيز فيما يحدث حوله واستعاد تركيزه مرة ثانية حينما كان جالساً مع المستمعين إلى القس. لم يستمع هاينريش إلى كلام القس

بوعي كامل، حيث شرد ذهنه أثناء الحديث عن علاقة الحب والكره التي كانت تجمعه بوالده والتناقض بين حبه له وشعوره بالذنب نحوه.. وعندما عاد مرة أخرى إلى واقع الأحداث، ظن أنه متابعاً للخطبة، ولكنه انشغل بشيء عالق بشعر زوج صهره الذي يعمل خبازاً، تعلق عنكبوت بشعره وأخذ يتحرك، ربما كان ينسج خيوطه بين الخصلات، كانت الخطبة قد انتهت وخرج المعزون إلى فناء الكنيسة نحو مقبرة ذات مدفنين ووقف الجميع أمامها بالترتيب، كل حسب درجة القرابة تاركين مسافة بينهم.. بكت إليزا عندما ذكر القس في حديثة كلمة "ساعة الفراق"، وضع هاينريش يده فوق كتفها وتساءل "هل ستبكي إليزا هكذا عليّ يوما بعد أن أموت؟" .. كانت إليزا شديدة التماسك قبل لحظة سماعها للكلمة التي حركت مشاعرها، وظهر الأب على عكس بناته شديد الهدوء، بل لم يظهر على وجهه علامة انفعال واحدة، وحينما التفت ليمسك حفنة من التراب ليلقي بها فوق القبر بدا وكأنه يرمي أحد أعدائه بالتراب، وأثناء مغادرة المقابر أشارت إليزا إلى مقبرة نما عليها العشب ووقفت أمامها وأخبرت هاينريش أنها كانت في الرابعة عشر من عمرها حينما أتت أيضا إلى هذا القبر لحضور جنازة أثنين، العجوز "جاتيجر" والشابة "هانريتا"، أخبرته أنها مازالت تتذكر ذلك اليوم جيداً.. كانت هاينريتا تشتري الخبز من مخابزهم بصحبة شاب

بذقن، كان يرتدي دائماً قبعة ملفتة للأنظار، كان دائم الصمت، لقد توفيت هانريتا وعمرها تسعة عشر عاماً، وتوفيت جاتيجر بمرض الطحال، بعد الوفاة أخذتها أمها في ذلك اليوم المغطى بالثلوج للجنازة، رغم أن اليوم كان في نهاية شهر مايو. . انطلقت إليزا فجأة في الحديث. . لكنها لم تعلم أن هاينريتا قد بعثت من جديد وشفيت من مرض السل. . لقد بعثها إلى الحياة صديقها الصامت مرة أخرى في قصصه، ولكن باسم آخر وهو "آنا"، لقد ظل مخلصا في حبه لها حتى كتب هذا الكتاب العظيم.

وأقيمت مأدبة الأحزان التي يقال عنها مأدبة الموتى في مطعم انجل المطل على البحيرة، والذي يعيد للأصوات المكتومة حيويتها وتتخبط الكؤوس في صحة الموتى الذين خلدوا إلى الراحة والبعد عن تقلبات الحياة. وكانت الدائرة تحوى الأب يوهان الذي جلس خارج منطقة البنات وأزواج البنات، وكان المعلم هيشتاند والقس فزى جالسين أيضاً في هذه الاحتفالية. كانت الأصوات تتحول تدريجيا إلى نبرة البهجة والانشراح، وكان ذلك يسهل على يوهان أن يتكلم مرة ثانية بعد يوم صامت لم يتكلم فيه إطلاقاً. حيث كان يتبادل الحديث مع كل من القس والمعلم معهم ويزيل الخلاف بينهما حيث كان يختلفا في أفضلية النبيذ المصنوع في ريتشرزفيل هل هو ١٠ أم ٣٤، أدلى القس برأيه بأن النبيذ الأول هو النبيذ الصاعد ذو الطعم الجيد، وان ٣٤

سوف يندثر. قال يوهان أيها السادة:

- قارنوا الكامل بالمتكامل!

إنكم تقارنون بين نوعين عفيفين؟ إن الـ ١٠صغيرة عن ٣٤، أشاعت روح البهجة في المكان ورفع الجميع الكؤوس يحيونه. سعد القس بهذه المقولة وتبادل خط الكؤوس وكان سعيدا لان صديقه استعاد حيويته مرة أخرى في الكلام. ثم أكمل قائلا:

- ولماذا اختار جوته هذا النوع من النبيذ بالتحديد ليتحدث عنه في أشعاره.

صمت يوهان فمال القس على هاينرش وسأله أن ما كان يعرف أن حماه قد التقى مرة بالشاعر الكبير. نفى هاينريش مستغربا، ولم يعرف "إبيج" زوج الابنة الثاني قصة جوته، فأكمل الأب يوهان الحكي وسرد القصة في إيجاز يعبر عن حقيقتها، هذه القصة التي يتوارثها أحفاد الأحفاد ويتداولوها بينهم. . .قال يوهان:

- في هذا القرن السابق في عام سبعة وتسعين في يوم سبعة وعشرين في شهر الخريف كما كنت أقول وأنا صغير وعمري تسع سنوات "شهر الخريف" ولم أكن أعرف التواريخ والفصول، عبرت إلى الناحية الأخرى من الجزيرة العامرة بالحياة بعد أن ترددت الأحاديث حول قرب وصول أمير الشعراء إلى ريشترزفيل ورغبته في القيام بجولة في اتجاه منطقة أينزيدلين وجوتهارت. بالطبع لم افهم سوى كلمة أمير،

ولأنني لم أر شخصاً مثله من قبل، فنويت على ألا تفوتني رؤيته وتقديم يد المساعدة له مثلما نفعل مع الحجاج والقادمين للعلاج وأن الحق به في أي مكان يتوجه إليه. سمعت أحدهم ينادى فجأة ها هو ذا قادم. رأيت زورقا يقترب نحونا، به ثلاث أفراد، بالإضافة إلى عمال المركب، لم يكن استقبالاً كبيراً، وبهذا كان من اليسير عليّ أن أجد مكانا خاليا بالقرب منه لأقف فيه واستقبل صاحب المقام الكبير، وأمد له يدي أثناء صعوده على الميناء، لأساعده في الخطو نحو الأرض، ترك الشاعر الكبير يدي مع وصول قدمه إلى رصيف الميناء ثم مرر يده فوق شعري ومسحه لي:

– بديع جدا

لم يعطني بقشيشاً، ولكنه وقف مشدود النظر متأملاً منطقة رشترزفيل بصحبة الرجلين اللذان حضرا معه، كان أحدهما يحمل معه أوراق ويسجل ما يقوله، يبدو أنه كان كاتبه الخاص. . دوّن الكاتب سريعاً تعليق الشاعر أو أمير الشعراء عن رشترزفيل، أتذكر ما قاله " يا له من مكان بديع"

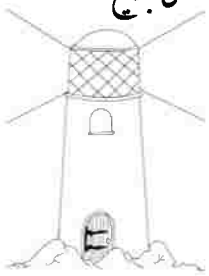

وضح أبي لي في المساء معنى كلمة بديع. لأني لم أكن افهم العبارات المكنية وأسلوب جوته. وسجل كتاب جوته الخاص تعليقا آخر"إن طبيعة القرية وطالعها في غاية البداعة" . . هذا هو كل ما حدث، وهكذا أنهى الأب يوهان حكايته ووصف الأب فزى قصة جوته بأنها قصيرة وممتعة. وسأل هيشتاند هاينريش أن ما كان قد قرأ شيئا للشاعر، تذكر هاينريش أن أبيه كان يقرأ سطوراً لجوته عندما حدث خلاف وأمره بمغادرة مائدة الطعام ودخل هاينريش الحظيرة ولم يسمع شيئا . رد هاينريش على هيشتاند موضحاً:

– كرجل أعمل في التجارة ليس لدي الكثير من الوقت حتى أقرأ الشعر

قال هيشتاند:

– أفهم تماماً ما تعنيه، لقد سمعت أنك بدأت عملاً جديداً، ونشر خبر تأسيس شركك في الجريدة المسائية.

قال هاينريش:

– هذا صحيح لقد تم نشر هذا الخبر في مارس.

نادى هيشتاند على شومان صاحب المطعم، وطلب منه الجريدة الحكومية الصادرة في مارس وطلب بالإضافة إلى ذلك مشروبات أخرى. عاد صاحب المطعم بالكؤوس الممتلئة. تصفح هيشتاند الجريدة وقال:

– شركة فيولا ها هي واضحة كالشمس في الجريدة. يوم السابع عشر من مارس، سوف أقرأ عليكم نهاية العمود الأخير من المقالة التي تم نشرها: "*شركة فيولا / تم تأسيس شركة فيولا للأخوة بلوتشيلي، كل من تيودور بلوتشيلي، والسيد جون هاينريش بلوتشيلي*"

أحمر وجه إليزا من الفخر، لأن اسم هاينريش مذكور بالصحيفة الرسمية، وهذا مؤشر على انه باستطاعته التحرك بنشاط في الأوقات العصيبة. التفت القس فزي إلى يوهان بوجه مشرق، لكي يخبره بأن أبنته سوف تلقى عناية جيدة مع هذا الرجل.. قال الأب كل شيء من عند الرب، هكذا يكون الأمر. نادى هيشتاند:

– والآن نشرب نخب هذه الشركة الجديدة أن تكون مباركة.

لم يشعر هاينريش بالارتياح وبدأ العرق يخرج من مسام جلده مع تذكره ما وصل إليه حال الشركة، هذا الحال الذي لا تدري به حتى إليزا نفسها، سأل هيشتاند:

– الآن يا سيد بلوتشيلي، كيف تجرى الأمور، كيف حال الشركة؟

– لا بأس، كل شيء يأخذ وقت، حتى طفلنا هذا وهو عمره لا يتجاوز الربع سنة يحتاج في بطن أمه إلى وقت محدد حتى يتم ميلاده.

قال القس متفائلا وهو ينظر إلى بطن إليزا نظرة مستفيضة:

- لا ننسى أن تشكر الرب، فيما يربو علينا من أمور مباركة في حياتنا

كانت إليزا قد بقيت بضعة أيام أثناء حملها عند والدها ومع مرض أختها ريجولا أصيبت إليزا نفسها بالحمى وتم عزلها للراحة وعادت إلى زيورخ قبل وفاة أختها بأسبوعين، حيث جاءت تحذيرات الطبيب لها بإمكانية فقدان جنينها، ولكنها وفاة أختها آثرت العودة والبقاء بجانب والدها وحضور الجنازة والقيام بالمساعدة في البيت الذي توفى فيه معظم أعضاء الأسرة.

شعر هاينريش بانعدام حيلته مع إليزا، وبأنها لا تتجاوب مع كل أفعاله وكلامه إلا ببرود شديد ولم تعد كسابق عهدها معه ولحسن الحظ انتهت الحمى السريعة ونهضت إليزا من السرير واهتمت بأمور المنزل بل وكرست جهدها طوال الصيف على أن تزيل عن هاينريش كل سبب التعكير ولم تضخم الأشياء التافهة.. أخفى هاينريش عنها تورطه في تجارة الفرو والجلود وأنها لا تتقدم بسبب عدم وجود انسجام من البداية بينه وبين أخيه، وكذلك سبب غلاء المعيشة والأزمة الاقتصادية التي تسببت في انهيار كثير من الأعمال، هذا إلى جانب ميل الأخوين إلى حياة الرفاهية والمصروفات الباهظة، كل هذا أدى إلى انهيار الأمور وخروجها عن سيطرتهما.

ورغم ذلك كان هاينريش سعيداً من قلبه عندما أنجبت إليزا في الرابع من أكتوبر عام الثامن والأربعون – أي بعد أربعة أسابيع من تأسيس دولة سويسرا الاتحادية الجديدة – أنجبت له ابنه تيودور في صحة جيدة وساعدها ذلك على العودة إلى مرحها ونضارتها مرة أخرى، وبذلك عادت إليها صحتها واستطاع هاينريش أن يفاتحها في الصعوبات التي تواجهه مع أخيه والتي أدت إلى تصفيه الشركة معه وأن أخيه اتجه لفتح مطعم وتغير نشاطه. . لقد فقد هاينريش رأس المال البسيط الذي ساهمت به أمه وأن العجز الذي سيتبقى للعمل من جديد ليس كبير، وهنا سأل هاينريش إليزا أن ما كان بوسعها أن تساهم معه بجزءً من مدخراتها حتى يقدر على تقوية وضعه التجاري من جديد، سألته إليزا برقة حينما كان تيودور "جدي الأكبر متعلقاً بثديها ويرضع بقوة:

– أي نوع من العمل تنوي القيام به؟

قال هاينريش:

– الحرير.

قطبت إليزا جبينها وصمتت. . فأسرع هاينريش بتوضيح أن تجارة الحرير سوف يكون لها المكانة الأولى في الوضع الراهن، خصوصا بعد انهيار الغزل اليدوي وظهور الصناعات القطنية، كما أنه من المعروف الآن أن أكبر العمالة اليدوية متوفر بالمناطق الجبلية

حيث يعمل عدد كبير منهم بالغزل والنسيج اليدوي وسيصبح ذلك لهم مصدراً جديداً للرزق بعد زيادة وارتفاع سعر المواد الخام وظهور منافسة الماكينات الإنجليزية التي زادت من الضغوط على الجميع وتقليل أجور العمال. . . كما أن الحكومة الجديدة تهتم بترويج أنواع جديدة من الصناعات وفتح أسواق وتدريب المواطنين بشكل مجاني للعمل في هذه المجالات ومن ضمن هذه المجالات المرحب بها هي صناعة المنسوجات الحريرية في منطقة بفيفيكون وقد تم بالفعل تأسيس عدد كبير من مدارس تعليم الغزل، وكل هذا يوضح المؤشرات الدالة على أن صناعة الحرير ستكون رائجة في المستقبل القريب، وبعدما انتهى من طرح أفكاره عن تأسيس مصنع للمنسوجات الحريرية وشركة للتجارة لتأسيس قاعدة تجارية بمنطقة بفيفكون، بدأ تيودور في الصراخ رغم أنه كان قد شبع من الرضاعة، مما أضطر هاينريش إلى الصمت لفترة وجيزة حتى يصل إلى خلاصة حديثه، بأنه سوف يؤسس شركة أيمان/بلوتشيلي، لقد وجد شريكاً من أيمان لديه الخبرة العملية. قالت إليزا:

– هكذا، إذن علينا أن نجمع حقائبنا وحوائجنا ونرحل إلى بفيفيكون. .حسناً، فأينما تذهب عليا أن نرحل معك. إنه توقيت مناسب بالنسبة لي حتى أغادر المكان هنا.

وأشارت إلى الغرفة العلوية التي تقطنها أم هاينريش،

واسترسلت:

– أنت تعرف أنه ليس بيننا انسجام .

سأل هاينريش:

– ما هي المشكلة؟

ردت إليزا:

– هي تعرف وتفعل كل الأشياء بطريقة أفضل مني أو من أي أحد وتجعلني اشعر دائما أنني لست طيبة، أنني لا أتعامل معها بطيبة.

قال لها:

– على كل حال أن الانتقال من هنا وتغير المنزل ليس ضرورياً خصوصاً أن المكان الذي وجدته في بفيفيكون هو مخزن به مطبخ صغير ولا أحتاج إلا إلى مكتب وكرسي وأدوات مكتبية، وفى المساء يمكنني أن أعود إليكم بسيارة البريد .

قالت إليزا:

– هكذا يا صاحب مصنع الحرير، قل لي إذن كيف ستتمكن من النجاح في عملك الجديد ؟

– سوف أتعاقد مع مصانع الحرير الكبرى في هورجان وكيلشبيرج للحصول على خام الحرير بالدفع النقدي أو بالدفع المؤجل على الحساب، ثم أقوم بتعين الغزالين والدفع لهم بعد بيع المنتجات

والحصول على مكاسب كبرى وبهذا نصبح أغنياء

قالت اليزا:

– هاينريش. . لقد قلت من قبل أن كل الأشياء تأخذ وقتها حتى ولادة طفلنا هذا.

حتى يدحض هاينريش شكوك إليزا تم تأسيس شركة بلونتشيلى/ أيمان سريعاً مع مطلع العام الجديد، ويبدو أن الانسجام بين هاينريش وأيمان لم يستمر لمدة طويلة وظلت الشراكة قائمة لمدة ستة أشهر، بعدها تمت التصفية ونُشر بيان التصفية في جريدة زيورخ في يوليو عام تسعة وأربعون، وقد كتب ذلك في الصحيفة الرسمية بزيورخ:

" تم فسخ الشراكة بين أيمان وبلونتشيلى بمنطقة بفيفيكون وسوف يستمر نشاط الشركة بتجارة المنسوجات الحريرية تحت أشراف هاينريش بلونتشيلى وبأسم هاينريش بلونتشيلي"

أصبح هاينريش هو سيد أعماله ومديرها الأوحد ووصل بهذا إلى العمل في مجال القماش الذي كان يحلم به.

الفصل الخامس عشر

يبدو أنه من المحتمل أن العقد السادس من عمر هاينريش شهد نشاطاً ملحوظاً على المستويين الشخصي والعملي، ولكني أعتقد أن عشر سنوات في دلتا النيل قد تكون قد مرت بالنسبة له كيوم واحد، فتبديل نظرك هنا أو هناك قد يجعلك تمر على الأمور بسرعة كبيرة فلا تستطيع حتى أن تكوّن ذكريات هنا أو هناك.

ركبت السيارة مع سائق من الإسماعيلية على الرغم من أني ارتبت من هيئته، فقد كان يسمى نفسه بالنمر، ولم تكن هيئته تدل على أنه سائق للنقل على طريق الإسكندرية، بل كانت هيئته تدل على أنه سائق خاص. في بداية تحركه، قاد السيارة بسرعة كبيرة وبعد مرور أول ٦٠ كيلومتراً أردت التوقف عند التل الكبير كي انظر إلى ميدان القتال الذي دارت فيه المعارك بين القوات الإنجليزية وجيش عرابي باشا، تلك المعركة لم يكن لهاينريش علاقة بها حيث

أن المعركة دارت رحاها بعد أن انتقل هاينريش من الدلتا بوقت طويل، ولكن بقليل من التفكير نجد أن الأحداث الدامية التي وقعت له هو ورفاقه الأجانب كانت بسبب تلك المعارك، حيث أنه من جراء تلك المعارك انتقل عدد كبير من الأجانب المقيمين بالإسكندرية إلى القاهرة، وقتل في الإسكندرية ما يقارب مائة أوروبي ولا أحد يعرف على وجه التحديد ما الذي حدث هل كان بأمر من عرابي أم أن الأسطول الإنجليزي دك المدينة المكتظة بالسكان بمدافعة الثقيلة؟ على أية حال فقد بقى هاينريش على قيد الحياة بسبب علاقته الشخصية بالحاشية، فقد كان حر في الانتقال ولم يكن موظفاً عليه أن لا يترك كرسي الوزارة حتى سن المعاش.

بعدما تركنا التل الكبير توجهنا بالسيارة إلى الجهة الشرقية من الدلتا حيث مدينة الزقازيق، كان الطريق من الجهة اليسرى للمدينة مليئًا بالبالوعات المفتوحة، أما الجانب الأيمن منها نجد أنه على بعد عدة أمتار ينبعث دخانً كثيف من أكوام القمامة المحيطة بالمنطقة، حيث يقف هناك أناس بثياب رثة ينقبون في القمامة عن أيه أشياء نافعة يمكنهم الاستفادة بها، فعلى الرغم من قبح تلك المدينة وجدت نفسي مرغمًا على البقاء بها، فقد كان كان هاينريش يسكن بالقرب من المنطقة الريفية المتاخمة للزقازيق قبل أن يصبح مديرًا للبريد بالإسماعيلية، وفي تلك المنطقة أنجب كلا من هاينريش وكاترينا،

ابنهما الثالث جورج.

كنت سأرسل إلى أحفاد جورج خطاباً أو أذهب للقائهم لو كان لدي أي معلومات متوفرة عنهم، وكم سأكون سعيداً إن كان لهؤلاء الأحفاد وجود، لكن كل ما حصلت عليه من مكتب الأحوال الشخصية بزيورخ هو اسم وتاريخ كلا من أبناء هاينريش وكاترينا وكل أقاربهم وكل من دخل في هذه العائلة، وآخر شيء كان مسجلاً هو الطلب الخاص باستخراج أوراق تحقيق شخصية تثبت أنهم نصف شرقيين، وبأن مقدار الرسوم هو خمسون فرنك، ولكني لم أتوصل إلى طريقة الاتصال بهم، خصوصا أن استخراج بيانات عن أشخاص من المحتمل أن يكون غير أحياء قد يستغرق من الوقت حتى بعد عودتي من القاهرة، وبهذا كنت سأوفر على السفارة السويسرية مجهود البحث عن عائلة بلونتشيلي بمصر، وبعد عودتي وصلتني الأوراق من مكتب السجل بأنه ليس هناك أفرد معروفة لديهم من عائلة بلونتشيلي مازالت على قيد الحياة.

علمنا مؤخرًا بأن جورج – الابن الثالث والذي توفي مبكرًا قد ترك خمسة أطفال لزوجته الفرنسية حيث ألحقتهم بدار للأيتام في سويسرا، كان أصغر هؤلاء الأطفال هو يان بيتست، الذي أصبح فيما بعد حلوانيًا وربى ابنه الوحيد على تعلم نفس المهنة وهذا الابن

هو الذي كان من المرجح أن يكون على قيد الحياة في مصر، ولكن الأخبار جاءت لتأكد أنه قد عاد لاحقا إلى سويسرا.

وهكذا لم أتمكن من الحصول على معلومات محددة وأيقنت أنه لا توجد أوراق خاصة بهم بالزقازيق، وعليه اتجهت إلى طنطا والتي تقع في قلب الدلتا، فالطريق إلى هناك يمر عبر حقول خضراء، عن اليمين واليسار لا ترى غيرها لمسافات طويلة في إيقاع رتيب.

في الطريق مررنا على ميت غمر وهناك عبرنا فوق فرع دمياط من نهر النيل، وبعدها نصف ساعة من القيادة وصلنا إلى مشارف مدينة طنطا، جلست أنا ونمر على مقهى في الشارع . . في مقابل المقهى كان يوجد جزار وكان عنده سيدة ممتلئة ترتدي الحجاب حيث كانت تشتري لحماً، كان جثمان العجل معلقا وهو خاويا من الأحشاء وكانت تلك هي الصورة الوحيدة التي انطبعت في ذهني عن تلك المدينة.

أشياء كثيرة حدثت لهاينريش في طنطا . . اصطدمتُ لأول مرة باسم تلك المدينة في الأرشيف الوطني بزيورخ، وكان هناك خطاب أرسل من الحكومة إليه ولكنه عاد مرة أخرى للوطن بدون توقيع. وكان التوقيع على الأوراق يحمل اسم عبد الملك، فلابد أن يعود الخطاب إلى الوطن ويذكر ذلك بلوتشيلي في المحكمة.

خرجت من طنطا مرهقًا جدًا حيث مرت أحداث كثير، وفي

النهاية اتجهت إلى المحلة الكبرى، تلك المدينة التي تبعد عشرون كيلومتراً شمال طنطا، حيث عاش فيها هاينريش بالتأكيد عدة أعوام قبل أن يتوجه إلى الزقازيق، وعلى كل الأحوال فإن رودولف قد أتى للدنيا في سبتمبر ١٨٦٤ أما الثمرة الأولى فكان تشارلز والذي ولد في ديسمبر ١٨٦٢ . والذي يعود إليه الفضل في التعرف على الكثير من تفاصيل حياة هاينريش خلال الفترة التي قضاها في الدلتا، لقد عُين هاينريش في وظيفة مدير ومفتش على جميع المصانع الملكية في كل من المحلة الكبرى، وطنطا، وسمنود، وكفر الزيات و الزقازيق.

قرأت جدتي لي التعليقات التي كان قد كتبها تشارلز في الكراس الأزرق، وكانت تتوقف عندها باعتزاز قائلة يبدو أن هذا البلوتشيلي كان يثبت كفاءته في كل الوظائف المختلفة التي كلف بها . معنى ذلك أن هاينريش كان يعمل في وظائف حكومية مرموقة في فترة الستينيات حسبما نقل عن تشارلز ويكفي فخراً أن هاينريش كان قد تولى منصب مديراً في العهد الملكي على مصانع الغزل والنسيج، إذا كان هذا صحيحًا فإن ذلك معناه أن هانريش رحل في أغسطس من عام ١٨٦٢ إلى ليفربول بالباخرة، ليشتري ماكينة حلج قطن تم تطويرها وتصنيعها في إنجلترا، ويقول تشارلز عن هذه الرحلة وكالمعتاد منه دون ذكر أية تواريخ محددة للفترات التي يتحدث عنها:

"كان هذا هو التكليف الثالث للقيام بمثل هذه المهمة في إنجلترا في السابع من الشهر وحسب التقرير الخارج من القنصلية النمساوية بالإسكندرية، فقد سافر إلى ليفربول باسم كارل"

ولتوضيح تفاصيل أكثر حول مسألة تجارة الأقطان هذه فيجب ذكر أن القطن المصري أصبح تجارة مربحة وله صيت عالمي في ستينيات هذا القرن بعد خسائر القطن التي توالت في الولايات المتحدة بسبب الحرب الأهلية الأمريكية وانسحابها من الأسواق في ذلك الوقت، خصوصاً بعد إرسال الولايات الشمالية بأسطول بحري لمحاصرة شحنات القطن التابعة للولايات الجنوبية والتي كان من المفترض تصديرها إلى أوروبا حيث أن أغلب تلك الشحنات كانت من القطن المصري طويل التيلة الذي لا يُستهان به.

كما أن هاينريش لاحظ أن التجارة في هذه المجال أصبحت رائجة وجعلت العديد من أصحاب القدرات البسيطة يتحولون إلى أثرياء في وقت قصير جدا ويربحون أكثر منه، مما دفع هاينريش ليجرب حظه ويمشي مع تيار السائرين على هذه الصيحة، خصوصا أنه يتمتع بمكانة متميزة ، ومما لا شك فيه أن هاينريش قد انتفض وأصيب بالحمى حين وجد أن فلاحًا هاجر حديثًا إلى مصر اسمه كريسبر، كان قام بتصفية أعماله الزراعية واتجه إلى صناعة القطن، وجني أموالاً كثيرة وكان هاينريش يعمل معه، ومع نهاية الحرب الأهلية

الأمريكية، انهارت صناعة القطن المصرية فترك كريسبر مصر نهائيًا بحجة أن المناخ هناك لم يعد مناسبًا له وترك هاينريش مفلسًا تمامًا.

ودائما ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، لقد علم هاينريش أن إليزا شميت اختارت أن تتزوج ثانية منذ فترة قصيرة بالقبطان يعقوب تريشلير، ذلك الأرمل الذي لديه ثمانية أطفال. هذا البحار الذي كان قد أحرجه من قبل عندما كان يركب في السفينة في الدرجة الأولى وكانت التذكرة خاصة بالدرجة الثانية، لقد أخبره بذلك كيسبر قبل مغادرته لمصر، وكان وقع ذلك عليه أصعب من هروبه وتركه لهاينريش في حالة إفلاس.

هذا الزواج الثاني لإليزا جرح هاينريش جرحًا غائرًا، ولكنه ضمد جراحه سريعًا بارتباطه بعلاقة غير شرعية، ولكن مهلاً قد تكون تلك علاقة غير شرعية ولكنها على الأقل ليست علاقة زائفة، مثل أحضان إليزا التي تجلس بين الناس تضحك بلا روح حقيقية، إنه لشيء يبعث على الألم، وأثار ذلك الأمر عاطفة هاينريش جدًا لدرجة أنه أصبح مطاردًا في أحلامه بالخيانة والسخرية، ولكن فلنترك الأحلام وعالمها جانبًا، وذلك لأنه لم يكن فقط ضحية، كما أنه كان دائمًا يفكر في ابنه تيودور والذي أصبح ينتمي لإليزا أكثر منه وأصبح فجأة هذا الغريم زوج لأم ابنه.

من حسن حظ هاينريش على مستوى العمل أن الخسائر العملية

لم تكن فادحة بالنسبة له ولم تخلف أيه ديون كبرى يمكن ذكرها، من ناحية أخرى لم تستمر حالة الخسارة مدة ، حيث أصّر إسماعيل باشا على وضع هاينريش وهو أتباعه المخلصين في نفس مجال العمل في القطن حتى يرأف بحاله، بل قام بنقله كما هو معروف للعمل في هيئة قناة السويس ثم فيما بعد في مجال استخراج وتصنيع الملح، وفي النهاية نقله إسماعيل باشا للعمل في مكتب للعلاقات العامة بعد أن أفلست وزارة الباشا وأفلس هو نفسه، وظل هاينريش يعمل في هذا المكتب حتى بعد إسماعيل باشا وأكمل عمله هناك حتى دخول الإنجليز إلى مصر.

ألم يكن بوسعه أن يربح جيداً من وظيفته، وهل استطاع أن يحقق حلمه القديم عن تكوين ثروة، لكن تشارلز يقول:

"لو أبي شخص أخر لاستطاع أن يترك لنا ثروة كبيرة بعد وفاته بالآلاف من الجنيهات"

ولكن كان بإمكان هاينريش أن يكون شخصًا آخر وهو الذي حقق مكاسب كبرى في شبابه، هل بذر كل ما حققه من مكاسب، هنا يضيف تشارلز:

"لم يقبل أبداً أية هدايا أو عطايا جاءت أثناء عمله ، فكانت نزاهته تمنعه عن ذلك وكان يفضل ارتداء بذلته الضيقة عن أن يسمح لنفسه بقبول أمر كهذا"

آه يا هاينريش أعلم كم عانيت في شبابك من أجل تحقيق أحلامك ، ولقد أدركت أيضاً مع تحقيق أحلامك بأنه لا يمكنك قبول سعادة تحقيق أحلامك، فأخطاء الماضي كانت تحيدك عن قبول متعة الرفاهية عندما كبرت أو حتى قبول لقب الباشا الذي عرض عليك فيما بعد .

على النقيض من ذلك، وهو الشيء الأهم والأجمل الذي حدث على الإطلاق فبعد أن كان هاينريش يعيش وحيدا طوال الوقت على ضفاف النيل لم يستطع أن يكبح نفسه دائما من الحب وغرائزه حتى مع التزامه المزعزع.

واشتعلت نيران الحب في نفسه عندما التقى بها في كفر الزيات. . كفر الزيات كانت في طريق طنطا المتجه إلى الإسكندرية . . توقف السائق هناك وقام ليلبي احتياج سيارته بينما تجولت أنا في مركز المدينة وحاراتها المبنية على الطرز الشرقي، الأماكن كانت مزدحمة وانتشرت فيها رائحة دهن الخرفان، وهنا في هذا المكان وربما في أي بيت من هذه البيوت كان موقع الفندق الذي أقام فيه المفتش بلوتشيلي أثناء رحلات العمل وتفقده للمصانع في كفر الزيات، ومن المؤكد أنه في أحد أيام خريف عام ١٨٦٢ نزل هاينريش في فندق يملكه سويسري من مدينة لوزان يدعى هينري كومبت، كان قد سمع عنه من قبل في الإسكندرية في النادي السويسري وسمع

أيضاً عن زوجته اليونانية سميرنا رائعة الجمال ذات العيون السوداء الفاتنة، وأيضا سمع عن جمال ابنتهما كتارينا البالغة من العمر ستة عشر عام حينئذ، والغريب أن تشارلز الذي كان أحيانا لا يسجل أهم الأشياء توقف عند هذا الأمر ليصفه مسجلاً:

"كانت الأم كومبت ترغب في تزويج أبنتها لرجل يوناني، لكن الأب لم يرغب في ذلك ولهذا أعطى أبنته كتارينا إلى أبي هاينريش"

لم يعرف تشارلز أبداً أن هاينريش في وقت زواجه من أمه كان لا يزال يعد زوجاً رسمياً في سويسرا لإليزا، وأن والداه لم يتمما زواجهما الرسمي إلا بعد ذلك بعشر سنوات بعد ولادة بقية أخواته، والغريب أن هاينريش قد تحرر من زواجه السويسري قبل ذلك بمدة ، والأغرب من ذلك هو قرار عروس كفر الزيات على هاينريش كزوج لها دون غيره، وسرعة الزواج بينهما، رغم أن هاينريش يكبرها باثنين وعشرون عاماً ، هل لم يشعر الأب هنري كومبت بالأمان على أبنته إلا بين يدي زوج سويسري، أم أن الأصح هو أن هاينرش حرقته نيران المحبة وأنهى الأمر بطريقة سريعة حتمت سرعة الزواج، ليقبل الأب في ذلك العام زواجه من أبنته في شهر مايو – هل ليتجنب عار ابنته– لتنتقل للعيش مع هاينريش في المحلة الكبرى وتصبح أماً في نفس العام.

في كفر الزيات مر السائق بعد ذلك فوق الجسر الحديدي ذي حارة السير الوحيدة والذي كان مبنياً في وقت هاينريش نفسه للمرور فوق النيل وعبور فرع رشيد، سرنا في الطريق السريع المؤدي إلى الإسكندرية بسرعة مارين على جانبي الطريق بنفس الطبيعة، وأصبح لون السماء رمادياً حتى سقطت الأمطار مع دخولنا مدينة الإسكندرية ، تلك المدينة التي كان يستحم في بحرها جدي الأكبر عارياً وتقصيه الأمواج على شواطئها .

الفصل السادس عشر

وصلت لهاينريش عدة خطابات بشأن قضية طلاقة من إليزا وفي هذا الوقت كان قانون الأحوال الشخصية الخاص بمقاطعة زيورخ ينص على التمكين من الطلاق في حالات محددة؛ منها الخيانة الزوجية أو الزنا أو عدم القدرة على الجماع أو مرض ليس له شفاء ويعوق الحياة بشكل طبيعي مثل الجنون أو العته. وفي المادة ١٨٧ من القانون هناك نص آخر يعطي الحق في الطلاق وقد استندت إلى هذا النص إليزا بلونتشيلي المولودة باسم إليزا شميت في إقامتها لدعوى الطلاق ضد هاينريش، في محكمة الكنسية في نهاية عام ١٨٦١، ولأن الإصلاح بين الزوجين أصبح ميئوسًا منه، حولت الكنيسة القضية إلى محكمة بفيفيكون، وهي المنطقة التي كان يسكنها هاينريش قبل رحيله.

أما مادة القانون التي استندت إليها إليزا في دعوتها تنص على: *"حينما يقوم الزوج بهجرة زوجته عن عمد وسوء نية، حتى وإن تمت الهجرة في إطار شرعي، وترتب على هذه الهجرة إهمال جسيم*

لالتزاماته الزوجية تعطله عن عودته إلى الزوجة أو ممارسة الحياة الزوجية بشكل طبيعي، فإنه يمكن بعد انقضاء عام من تاريخ هجرته، أن تطلب الزوجة الطلاق" . . ورغم أن هاينريش كان متغيبًا في وقت إقامة الدعوى لمدة تزيد عن إحدى عشر عامًا، فإنه لم يكن ممكنًا على المحكمة التوصل إلى قرار سريع في الحكم وذلك لأن القانون يلزم المحكمة بالوصول إلى قرار بالحكم بعد أن تقوم بإرسال ثلاثة إنذارات للزوج . . بين كل انذر وآخر مدة ثلاثة أسابيع، وفقط بعد انقضاء مدة هذه الإنذارات يمكن للمحكمة إصدار الحكم. . لم يكن من السهل على السجلات الرسمية في مدينة برن التعامل مع حالة هاينريش حتى تتمكن من إرسال نص الاستدعاء، نظرًا لأن هاينريش لم يكن له عنوان مسجل في سويسرا، كما أن مكان إقامته في مصر لم يتح تواصل المحكمة معه بشكل قانوني، نظرًا لأنه في ذلك الوقت لم يكن هناك اتفاقيات سياسية بين البلدين تختص بتنظيم الشكل القانوني بين أفراد البلدين، ولأنه كان يجب على المحكمة الاطمئنان إلى وصول خطاب الاستدعاء إلى هاينريش فاتخذت المحكمة طرقًا غير مباشرة تتطلب وقتًا كبيرًا لإرسال هذا الخطاب، وعلى هذا قامت الدائرة القانونية بمقاطعة فيفيكون بإرسال النص المكتوب بصفة شخصية إلى هاينريش وبه توضيح نص الدعوى التي أقامتها إليزا للطلاق منه بناء على هجرته لها وإلزامه بالعودة إليها

لإعادة العلاقة الزوجية فيما بينهما، أرسلت الدائرة الخطاب أولا إلى مكتب الأحوال الشخصية بمدينة زيورخ التي أرسلته بدورها على مدينة برن، وهناك تم تحديد الجلسة رقم ١٥٣ في المحكمة السويسرية العامة يوم ٦ ديسمبر من عام ١٨٦١ للنظر في القضية، وعليه فقد قامت المحكمة السويسرية بتوجيه الخطاب إلى مدينة الإسكندرية بمصر عبر مكتب التمثيل التجاري لـ فيينا بالإسكندرية وقد تم إرسال الخطاب إلى هاينريش الذي كان في ذلك الوقت تحت حماية الرعايا النمساويين، وقد استقبل الخطاب في وزارة الخارجية القنصل العام السيد جوستاف فرايهر فون شراينر والذي أشرف بنفسه على تسليم الخطاب بشكل شخصي لهاينريش الذي وقع على ورقة باستلامه، وبالنسبة لعودة تلك الورقة الموقعة من هاينريش فقد اتخذت نفس طريق الوصول بالضبط. وتلك العملية تكررت ثلاث مرات في الثلاثة إنذارات التي كان من المفترض أن يتسلمها هاينريش، وقد حدث ذلك في الوقت الذي كان فيه هاينريش منشغلاً بتأسيس بعض المصانع وشراء المعدات لدى إسماعيل باشا.

لم يتمكن هاينريش من استلام الإنذار الثالث حيث أنه في ذلك الوقت – نهاية أغسطس كما هو معروف – كان مسافرًا إلى ليفربول تحت اسم مستعار "كارل بلوتشيلي"، حيث أنه بعد الإنذار الثالث كان مطلوبًا منه أن يحضر بشكل شخصي إلى بفيفيكون أمام المحكمة

وذلك في بداية أكتوبر، وإلا فإنه يجوز للمحكمة قبول الدعوى وإصدار حكم بالطلاق، وبما أنه لم يتسلم الإنذار الثالث فقد حكمت المحكمة بالطلاق ولكن صدر حكم الطلاق بخطأ في اسمه، وتم نشر الحكم بالجريدة الرسمية في الدولة، وكان صدور هذا الحكم بحل العلاقة الزوجية بين الاثنين وإلزام هاينريش بتعويض زوجته بمبلغ ٤٩٦٦.٨٠ فرنكاً وألزمها بتعويض هاينريش ١٠٠ فرنكاً، بالتأكيد كان هاينريش يعلم بخلفية مسار وتطورات دعوى إليزا وإلا ما كان قد سافر باسم مستعار إلى ليفربول فهو لم يشعر بالأمان داخل أوروبا المتحضرة وتخوف على نفسه أن يتم القبض عليه وترحيله إلى سويسرا، ليس فقط بسبب تلك القضية ولكن أيضاً بسبب ماضيه المتعلق بالديون التي تركها ورائه، وعلى أي حال فإن الاسم المستعار قد وفر لهاينريش قدرًا من الاختباء حتى استطاع أن يخلعه ويعود إلى زوجته كاترينا لينتظر مولودهما الأول بمصر.

كان هناك شيء مريب وهو أن إليزا لم تتعرض في الدعوى لمحاولة هاينريش للاتصال بها، وأنه في أحدى الخطابات نجد أن هاينريش قد أرسل خطابا إلى إليزا يطالبها أن تذهب له في مصر مع ولده حيث أن أحواله أصبحت مستقرة نوعًا ما ولكنه لا يستطيع العودة إلى سويسرا بسبب الديون المتراكمة عليه هناك، ويبدو أن إليزا قد ضللت المحكمة وأخفت ذلك الخطاب حتى تتمكن من الطلاق،

ورغم محاولات اتصاله بها إلا أنها استندت للحجة الأساسية في دعوتها على هجرته لها لمدة إحدى عشر عاماً وعزوفه عن الاتصال بها، وقد جاء في الكراس الأزرق المملوك لحفيدة إليزا وهي جدتي أيضاً شيء هام يلقي الضوء من جديد عن أمور غائبة في القضية و يعيد رسم دور الجاني والمجني عليه في علاقة هاينريش بإليزا:

"لقد جاء إلى جدتي إليزا خطاب من هاينريش أرسله من الإسكندرية واخبرها فيه أن أحواله أصبحت مستقرة ويمكنهما أن يلما شمليهما من جديد، لكن إليزا بقيت كما هي في رشترزفيل ولم ترد عليه، وحينما طالت المدة على هاينريش، أرسل لها من جديد مجددا طلبه ثم استحثها بعد ذلك أن تبادر بإجراءات الطلاق إن كانت لا ترغب في العودة إليه، فهو لا يستطيع أن يعيش بدون زوجته، وعليه تم الطلاق".

ويمكن استخلاص أن هاينريش لم يرغب في الطلاق من إليزا وأن ظروفه في سويسرا حتمت عليه البقاء خارج بلده، وقد اخفت إليزا على المحكمة رغبة هاينريش في إكمال علاقته بها وشأن الخطاب الذي أرسله لها، خصوصاً أن القانون في ذلك الوقت كان يلزمها بالسفر إليه وإتباعه في أي مكان يعيش فيه.

السيناريو الثاني هو أن هاينريش لم يرسل أي خطابات على

الإطلاق ولكن إليزا اختلقت قصة الخطابات لحفظ ماء وجهها كامرأة لا تفعل شيئًا في حياتها سوى انتظار زوجها بعد أن هجرها، بهذا الخطاب يمكن لإليزا إخبار عالمها الاجتماعي أنها مازالت مرغوبة وأن زوجها لا يزال يتمناها وهي التي تتمنع وترفض رغم أنه أصبح رجلاً ناجحا في حياته، أما إدعاؤها أمام المحكمة فكان حقيقيا، حيث لم يرسل هاينريش أية خطابات وهجرها بالفعل.

وبشكل أو بآخر يجب التأكيد بأنه في خلال عام ١٨٥٠ كان هناك اتصال بين هاينريش وإليزا لدفع مسألة الطلاق حتى عام ١٨٥٥، فقد أقترح على إليزا أن يتخذا قرارا حاسماً في موقف الطلاق ، ليس في غاية الهدوء في زمن يجرح فيه المرء وعليه أن يبقى متفتحاً وفي غاية الحكمة، أليست هذه صدفة بحتة، أن يظهر بعد ذلك بسنوات الجزء المظلم في حياة الاثنين. . وتيودور هذا الطفل الذي كان ثمرة حب الاثنين معاً، عندما اختفى الأب ، كبر حتى سن الثامنة بشكل طبيعي وقد انتقل للمعيشة إلى بيت الأموات الهادئ للجد شميت، الذي كان نعم الجد معه، وساعد إليزا على المعيشة وقد اهتمت بعد ذلك بشئون المنزل لفترة طويلة. حتى وجد الأب الموهن بأنه يجب عليها أن تترك التيار المصري، لتكسب المال الكافي ليعينها على المعيشة.

تعلمت اليزا أعمال السكرتارية وعملت في العديد مصانع

الأقمشة المحلية، وكان عليها أن تودع تيودور لأن عمل الأم يحتم عليها أن تذهب بعيداً، ولن تستطيع أن تقدم لأبنها العناية الكافية، فأرسلته إلى ملجأ للأيتام بمدينة زيورخ.

ونكمل: عند اختفاء الأب منذ عام ١٨٥٠ تفيد الأخبار بأنه لم يفعل شيئًا لأبنه وكانت التقارير تشير بأن الابن كان نابغاً وشجاعاً وشارداً بعض الشيء.

وفى فبراير ١٨٥٦ أخذته إليزا من يده ووضعته في دار الأيتام الموجود بالمدينة التي تعيش فيها، ولم تأخذه من هناك مرة أخرى، ولا حتى بعد سبع سنوات، عندما تزوجت مرة ثانية وتوقفت عن العمل نهائياً.

مكث تيودور أثنى عشر عاماً بملجأ الأيتام، تعلم خلالها مهنة الحدادة وصناعة الأقفال، وقد غادر الملجأ عندما أكمل سن العشرين، كان واقفاً على سلم الملجأ الخارجي ممسكاً بصرّة وشمسية، ليجد نفسه وحيداً، يتوجه نحو البحر والبلاد البعيدة.. وليس معروفا بعد ذلك ماذا حدث إلا أنه عاد بعد أربعة عشر عاما إلى وطنه من أمريكا.

نزل بمنطقة شاف هاوس وأسس هناك تجارة صغيرة، عمل هندسي دقيق، ووجد رفيقة حياته الموثوق فيها في لويزا عند عائلة فيبر، وقد رزق بأول بناته واسمها أيضا لويزا وهي أول من ذكرت

هاينريش كجد لها، ثم ولدت إيما بعد ثلاث سنوات وهى والدة أبى، ثم حصل تيودور بعدها بعامين على شهادة إجازة لصناعة أول ماكينة جلخ الأحجار شبة الكريمة بالمعرض الدولي في باريس الذي اعترف بالاختراع واشتراه أيضاً . . حتى وإن لم يحصل من هذا الاختراع على المال الكثير كما توقع لكنه على الأقل استطاع أن يبيعه.

هناك أحداث أخرى في ذلك الوقت . . كتبت في كراس إيما الأزرق:

"قرأت ذات يوم مقالا مكتوبا في الجريدة تحت العمود الصحفي (السويسريون في المهجر) عن هاينريش بلوتشيلى الذي يعيش ويعمل في البلاد المصرية وتدرج في وظائف عليا في مصر يتشرف بها وطنه السويسري"

صاح تيودور وقام قافزا من مكانه : إنه والدي! واهتز جسد تيودور عندما قرأ هذا الاسم ، وبأن هذا الرجل نقل الخجل لأبنه عندما رفضه وهو صغير. فكتب تيودور خطاباً لوالده ووضع به صورته، وأرسلها إلى الجمعية السويسرية بالقاهرة. جاءت الإجابة سريعة:

لم يكن هاينريش قد اخبر أبنائه ذات يوم بأن لهم أخ يعيش في سويسرا، عرض عليهم الصورة وقال لهم عليكم أن تخمنوا صورة من

هذا ؟ ! . . فأكدوا بالإجماع أنها صورته هو شخصياً عندما كان شاباً . . . كان الشبه قوياً جدا بين تيودور وأبيه، ولم نعلم بعد ذلك ماذا جرى بين الأب وأبنه . . لقد فُقدت الخطابات التي كان يتبادلها الاثنان وحتى ممات هاينريش، هل كانت خطابات عتاب؟ أو طلب العفو والسماح ، ظل ذلك سراً بين الأب والابن.

أدارت زوجة تيودور في منتصف التسعينات تجارة هيرناكير، والتي مازالت موجودة ومزدهرة حتى يومنا هذا . . وقد أزدهر العمل بالمصنع وتطور العمل بجلخ وتشكيل الأحجار حسب الموضة الجديدة ، وقام تيودور باستيراد المعدات الصناعية من الولايات المتحدة، الشيء الذي ساهم في دخل زائد، كما أنه أخذ أمه إليزا لتعيش معه بعد ترملها وبداتها المفرطة، كي لا تعيش وحيدة ، وقد ماتت بعد عمر طويل، ومازال صوت تنهداتها وسعالها في أيامها الأخيرة في الطابق العلوي من البيت ترن في أذن أبي وهو ابن حفيدتها، وصلت إليزا في آخر أيامها إلى حالة التشتت الذهني وفقدان الذاكرة وكانت تتحدث كثيراً عن هاينريش وتطلب رؤيته، مما أضطر تيودور أن يحضر الصورة التي رسمها رودولف كولر في باريس لـ هاينريش من البدروم وأن يضعها في غرفتها التي سوف تموت فيها . وهكذا مكث الزوجان مع بعضهما البعض بشكل أو بأخر في نهاية حياة إليزا .

الفصل السابع عشر

كانت بداية الاشتغال بصناعة الحرير جيدة، والسبب في هذا التوفيق يرجع إلى التحسن الطفيف في الحالة الاقتصادية المتأزمة عام تسعة وأربعين.. صحيح أن هذا العام لم يشهد نهضة وانتعاشا كبيرا في الحالة الاقتصادية لكنه آتى بتحسينات لا بأس بها في ذلك الاقتصاد المتعثر، وأيضا هناك سبب أخر وهو شروع هاينريش في استثمار أموالا في معدات النسيج لإنتاج المنسوجات الحريرية والمغازل اللازمة لصناعة الحرير.. حثت إليزا هاينريش على صناعة الملابس النسائية وما تطلبه السيدات من الموضة الحالية، ولكن إليزا اعتبرت تلك المعدات والآلات الفخمة الباهظة الثمن بذخا و تبذيرا .. أما هاينريش فكان يعتبر هذه المعدات والآلات أمرا ضروريا لا غنى عنه يتطلبه المنطق التجاري، وفرحت إليزا بإبداعه الأول وامتيازه في إنتاج ملابس حريرية فخمة، فاستحق نشاطه أن ينال شرف الامتياز لأنه كان مطلب لا غنى عنه إذ ارتبط العمل بوجهة نظر التاجر

ومنطق التجارة. .وظلت إليزا ترى أن إنتاجه الأول يمثل بذخاً وترفاً وبقى هو على رأيه أن هذا الأسلوب من الإنتاج أمر حتمي يطلبه المنطق التجاري، إذ قال لها: السمعة الجيدة أنفس ثمناً من الذهب والفضة وكلمة السر لرواج السلع. . ولا جرم أن تعلن هذه السمعة على الملأ وهي مطبوعة بهذه البطاقة.

لم يكن ممكنا الحصول على تسجيل لعدد بطاقات البيع الخاص بمنتجات هاينريش، والتي طبع عليها اسم المصنع، ولكن ظلت إحدى البطاقات باقية في كتاب فن الطهي الخاص بإليزا وسجلت عليها وصفة لعمل مشروب الليمون – طريقة تركيب مشروب ليمون – وكان الدافع الذي أوعز إليها بهذا هو حرصها، لذا آثرت تسجيلها على البطاقة، وأيضا فإن هذا المشروب يذكرها دائماً بالقبلة الأولى مع عشيقها حين قابلته على بحيرة زيورخ. سجلت إليزا هذه الوصفة التالية على ظهر البطاقة:

"توضع القشرة الخارجية لأربع ثمرات من الليمون في زجاجة ثم يسكب عليها لتر عصارة الكريز وتترك لمدة ثلاثة إلى أربعة أسابيع ثم تغلي في المحلول مع ٥/٤ فنجان سكرا وتوضع في زجاجتي ماء بهما أوقيتان قرفة مجروشة حتى تتكون رغاوي من السكر ثم يترك المحلول بضعة أيام ثم يصفى"

على وجهة البطاقة كتب – بالأحرف الذهبية المطبوعة على

الأقمشة وبها بقع من التي تحدثها الفطريات . . جون هاينريش بلوتشيلي . . بيفيفيكون . . زيورخ.

ولا جرم اتفق هاينريش وإليزا على حتمية شراء مجموعة ثانية من المعدات والآلات ولكن أفضى الخطب بهما إلى الوقوع في اختلاف، ولعل هذا الخلاف راجع إلى هذه العين المستأجرة بالعقار عند عائلة بفورر شتوكي وهي بمثابة مصنع صغير مع مطبخ يمكن استخدامه كغرفة لوضع مكتب فضلا عن دولاب لحفظ الخطابات، رأت إليزا أنه لا يلزم أن يكون هذا المكتب من خشب الجوز . . كما كان يرغب هاينريش : ألا يكفى خشب التنوب؟ . . ومن النظرة العامة إلى هذا الموقف يتبين لنا أن الاختلاف في مسألة الخشب المناسب قد أمسى أمرا هامشيا لا وزن له لدى إليزا وهاينريش الذي نسى أن يدفع حساب النجار السبعة والعشرين جولدا .

آثرت إليزا ألا تتدخل في أعمال زوجها طالما يثمر مغنما وربحاً وفيرا بما يواتيه أن يعولها وابنه تيودور بعيش رغد وترف لينعما بحياة تدليل . . ولكن أثبتت إليزا أنها ربة منزل حكيمة قاصدة، ولم تفتأ أن تخفى عن زوجها إمارات وسحنات الغضب والإلحاح، واجتهدت أن توارى عنه مشاعر الكمد والنغص التي تراودها منذ وفاة أعزائها، وأيضا كانت هذه المشاعر تسلبها قدرتها كلها وعافيتها كلها حتى كانت تعدّ أهون الأمور مصاعب جسيمة.

وظل هاينريش أوقات عديدة في هذه الأيام جالسا على المقعد المصنوع من خشب التنوب وهو يحسب ويفكر في تشغيل المصنع، والنساجون والنساجات يقصدونه ليختصهم بالأعمال المنوط بهم حيث كانوا يرتادون مكتبه ليسلموا الأعمال التي أتموها ويأخذوا أعمالاً جديدة ليتموها . . وكان مشغولاً أيضاً بالرحلات والتنقل لتسويق منتجاته، فكم كان يرحل مسروراً وهو قاصد نزول بيوت فاخرة، ويقوم بمفاوضات تجارية ، ويستمتع بمأكل ومشرب وهو يبرم صفقات تجارية؛ ذاع صيته وسخاؤه حتى بات الكرم شيمة حياته، ونجحت شركة بلوتشيلي وازدهرت.

وغلبت على هاينريش سمات أخرى كقدرته على الكسب والصوت الناعم العميق والنظرة المريحة التي توحي بطيبة قلبه وأريحيته، فيا ليته في غنى عن هذه الصفات حتى لا توحي له بأنه من الحكمة غض النظر عن العميل الذي يتجاوز مهلة الدفع! كان يعود إلى بيته في المساء حيث كان يداعب تيودور البالغ من العمر عاماً، كانت إليزا تعدّ له الطعام الذي يطلبه ويشتهيه، فإذا أشتهى تيودور طعاما لذيذا كانت تسرع إليزا في إحضاره في أيام غير أيام الآحاد والأعياد . . وكان هذا الطعام الدسم هو المشتهى دائما وهو إوزة محمرة محشية بالخضروات، وجرى العرف أن يتناول الشخص قبل ذهابه إلى الفراش زجاجة صغيرة من مشروب ليمون

وبدت حياتهما ذات مظهر جذاب مقارنة بما حدث لاحقا وأثر تأثيرا نافذا في حياة هاينريش وإليزا .

ألف هاينريش أن إليزا أخذت تتصرف تصرفات شاذة في رنق صفوها وانطوائها على نفسها، وألفت إليزا أن هاينريش يتصرف بغضب وثورة كأنما يرغب عن الإفضاء بالأمور التي تغيظه وهي مكظومة في نفسه إذ استثار هذا الغيظ لحظ إليزا . . أو بمعنى أخر كان يتصرف هاينريش بما ينم عن نفوره منها وعدم التحمل كأنما هناك أمر ما ينغص عليه ولا يستطيع الإفصاح عنه إذ هو مكظوم في طويته ، ولكنها لاحظت عليه أمارات الضيق والاستياء بما يدل على وجود أمور منغصة.

وفي كل الأحوال كان يتحاب الزوجان على الرغم من غياب الوفاق، وخصوصاً أن الابن المشترك بينهما يثير أسباب النوى بينهما، ولاحظت إليزا في بداية العام الجديد نزوح هاينريش إلى الإقلال من التواجد بالمنزل، إذ خصص لإنفاق المنزل قدراً قليلا من المال عن ذي قبل، فأوقع فيها هذا النزاع ألما وحيرة فطفقت تتحدث معه في هذا الشأن، فقال إن هذا الحرص الاقتصادي الشديد راجع إلى الكساد الاقتصادي والعمل في التجارة والسوق معرّض للصعود والانخفاض، وبالطبع ينسحب هذه المنطق على الحياة، فليتها ألا تقع في لبس بين شركته المنتجة حريرا والمخبز الذي تربت فيه، فالناس

في حاجة كل الوقت إلى خبر ولكن ليسوا في كل حين لحاجة إلى حرير، وأخذت تتبصر بمنطقه، ولكنها تَرَجَت من زوجها ألا يمتعض من هواجسها التي تسببت في قلقها بعدما جعل دخل البيت يعاود الزيادة بسرعة ليصل إلى المستوى العادي ويتجاوز إلى أعلى.

وفى إحدى أمسيات شهر مارس والجو صحو قررت إليزا أن تؤدى زيارة مفاجئة لـ هاينريش مع تيودور حيث تذهب معه إلى بفيفيكون وتعود في المساء معه إلى المنزل . . وسألتها حماتها على الدرج: ألم يكن لديك أية التزامات أخرى تقومي بها ؟ فقالت لها إليزا بعد أن صرت أسنانها وهى ترد: لا.

انفتح الباب المؤدى إلى المكتب في غرفته المستوية بالأرض على مصراعيه، ودخلت إليزا في هدوء متصنت عبر الباب، فسرعان ما خر تيودور من جزع وهو يلحظ هاينريش مستلقيا وناعساً عند ركن المكتب على جوال كبير مصنوع من الحرير . . واقتربت منه على أطراف أصابع أقدامها ووضعت الطفل على بطنه وهزت كتفيه، والعالم الآخر الجميل يتلاشى في سحنات وجهه . . وقالت له إليزا باستهجان : نهارك سعيد . . وأخذ هاينريش يرتجف في رعدة والخذلان يشل حركته عندما استكملت كلامها بنغمة منخفضة:

– أيها السيد لقد خلدت لتوك إلى النعاس . . أليس كذلك؟

وأخذ تيودور يعبث بلحية أبيه ويشدها لأسفل بيديه الصغيرتين

حينما كان يبذل جهداً لكي يرفع رأسه من الكرى ويشدها، وكان أبوه يحاول أن ينهض بإعضال وإعياء وهو يصدح مراراً كثيرا أنه لم يصبه في حياته هذا المصاب قط، فهو يتحدث عن الإعياء الفائق الحد الذي انتابه من سير عمله بهمة ونشاطه وهو يعلل هذا الإضناء بالنوم قليلا في الغرفة وفوضتها ولكن مسحة التعب بدت في شحوب هاينريش، مما نهى إليزا عن تسمية مكتبة بحظيرة خنازير ودعوته بالمتهاون في عمله . . فهل هذه الشحوب نتيجة هذه الصفة أم عن إجهاد العمل وإنهاك طاقته . . قال : سأغسل وجهي سريعا . . ثم أعطى الطفل لها وقالت له اليزا:

– إنك لم تسد لي تحية

فقبلها قبلة خاطفة وعندئذ عرفت كيف أن أنفاسه عقب النوم ظهرا تبعث برائحة كريهة كالكبريت إذ كان يدخن سيجارة قبل النوم.

وكان شعر إليزا منتصبا ومشبثا ومفترقا في وسطها ومن جانب الوجنتين كان منسالا مكونا ضفيرتين ملتفة على هيئة سدادة وكانت تغطى الأذنين والوجنتين وتنساب عند منتصف تجويف الرقبة ولم تهتز هذه الضفائر حينما رجع هاينريش إلى المكتب بل ارتجفت يدا إليزا وهي تحمل إحدى الأوراق من الأرضية وشرعت في قراءتها . .كانت هذه الورقة خطاب إنذار من صباغ الحرير جوزيف

رويتليج من زيورخ ، وكان مبلغ الدين مثيرا هذه الرجفة لمبلغ قيمته مائتا وثمانية جلودات، فقالت إليزا:

- هكذا جاء الخطب!

حينما كان يدور تيودور على الأرض ملتفا وهو يمسك أوراق أخرى مثيلة يلهو بها، فقال لها هاينريش:

- أنك مخطئة فهذا الحساب نصيبي فيه جزء ضئيل لأنني مدين لرويترلينج بتسعة وثلاثين جلودات وهذا أمر حقيقي أما المبلغ المتبقي وهو مئة وسبعة وستين سوف يتحمله الشريك السابق، ولكنه لا يريد أن يدفع لذا أتعرض أنا للمطالبة حاليا، وهكذا سوف ينقضي هذا الأمر المقلق في فترة وجيزة فلا تقلقي ولا تنزعجي

فقالت إليزا:هكذا الأمر وهى تشير إلى الأرض وتسأل:

- ما هي هذه الأوراق الملقاة على الأرض؟.. أجابها بأنها مجرد المراسلات العادية وكما قلت لك كل الأشياء تعلو تارة وتنخفض تارة، وأنا إذن كنت أعتزم ترتيب صفوف وأرفف الخطابات قبل أن ينتابني النعاس.

وانحنى هاينريش وأخذ يلم الأوراق في عجالة. انتزعت إليزا من يد تيودور إحدى الأوراق التي كان يمسك بها، وأخذت تبسطها فبدت لها سوداء أمام عينيها ولما لاحظتها وجدت أنها خطاب إنذار ولكن من كوخ وبفيستر بزيورخ وتشير هذه الورقة إلى حساب

مفتوح من عام سبعة وأربعين نظير أعمال القص الموردة بقيمة ستة وستين جولدات.

لم يتبق شيء من ثروة المنزل، ولكن تفطنت إليزا بالأمر وأخذت تأخذ باللين والمسكنة بدلا من التعنيف في حديثها مع زوجها، وتعجب هاينريش ونزع الخطاب من يديها وضحك قليلا وقال أنه لا يستطيع أن يوضح المزيد أي كيف بلغت هذه الوريقة القديمة إلى الأوراق المبعوثة بالبريد حديثا فصاح إنها جليد الأمس، إنك لا تصدقينني عن يقين أنني كمصنع حرير صاحب دين عند الخياط. . ثم قالت إليزا:

– هاينريش أنا أعرف أنه ليس لي أن أتدخل في شئونك التجارية أي شئون عملك، ولكن أعطني لي دليلا مؤكدا أنني أتكفل بالعيش دون أي اعتماد عليك.

قال هاينريش لها:

– إن أسعار الحرير متقلبة والمنافسة رهيبة والحظ ليس حتما يأتي عليّ بالسعد في لحظة وأنا في ذلك الحين لست بارعا ونشطا، فالحظ حتما يأتي بالسعد مادمت نشطا وامتلك مالا نقديا لكن الأمور لا تستمر على حالها بل حتما تتغير.

فقالت إليزا :

– الأمر إذن سائراً إلى النازل . .

قال:

- سيأتي الوقت بالسعد .

وأمسكت إليزا بهاينريش من أسفل ذراعه ودفعت إليه بقية المبلغ المدخر أي بقية مهرها والأموال التي ادخرتها . . وليت هذا الفعل يجدي نفعاً إذ قضى الخطب بالخراب البطيء الذي ظل ينكره هاينريش فقد كان ينكر هذا الوقع لكي يصون زوجته من صدمة الحقيقة، وإن كان لا يفتأ يتحدث عن الضائقة الاقتصادية وتقلب الأحوال والانتعاش الاقتصادي . . كان يكذب وقصده من هذا الكذب إشفاق من مغبة الوقع ومراعاة لمشاعر زوجته، فقد خشي أن يصدق المثل عن الحب أنه يطير من النافذة مع زوال المال . . هكذا أمسى هاينريش فنانا في إخفاء الحقائق، أيضا أفلح في إخفائها عن أولئك الذين ظنوه مستحقا لاقتراض ديون، ليصدق عليه القول " كلما ذادت الطامة وبالا تفقد الادعاءات الواهية مصداقيتها" . . وتذكر هاينريش موشج وهو صديقه من أيام حرب الاتحاد ومن ثم ساورته رغبة أن يليه ثقة دون غيرة ويأخذ مشورته.

لم يكن موشج قسا بل فلاحا بارعا في زراعة البطاطس، وكان ذكيا بارعا وانطلق هاينريش في منتصف أغسطس ناحية إسلينجى الصغيرة ليصلها عقب مسيرة على الأقدام لمدة ثلاث ساعات مجتازا أوسترو مونشالتدورف وايج . . وأحس حال وصوله بقبوله بجفاوة

وترحاب حيث لم يجد هذا القبول من أحد منذ حين طويل وإن لم يصرح له أحد بفرحة الاحتفاء به.

ولما وصل إلى ايسليخ استقبله صديقه موشج بترحاب وكان جالسا مع زوجته على مائدة الغذاء في ظل الزيزفونة التي تعلو على ضيعته الصغيرة حين قدم عليه هاينريش دون موعد وهو يسير بعرج قليلا بعد أن شاهده من بعيد، فاستقبله بفرحة خالصة وعانقه، بما ينم عن ود وحب صادق وقدم إليه زوجته للتعارف كصديقة بلوتشيلى. واحتفت بقدومه، ودار الحديث ساعتين حول الطقس، لكن الأمر يسير على نحو آخر والحديث يهدف إلى موضوع آخر فانسحبت بعدما قدمت الحلوى البلغارية الغالية للرجلين.. فقال موشج :

– أنى اتشمم السبب الذي أتى بك إلى هنا .

فسأله هاينريش مندهشا: – هل سمعت عن حالتي!

– عن حالتك؟! .. كلا ولكنني شاهدت أنك مهموم واستشففت من عينك نكدا وغما .

– نعم .. فقد تخلى عنى الحظ .

قال موشج:

– هل كنت مخطئا عندما تنبأت لك بالسعادة والهناء مع فتاة أحلامك؟! .. هل القضية هنا تتعلق بزواجكما .. أو هل النكبة

هنا راجعة لزواجكما . .

وأخذ موشج يحشو غليونه ثم قال :

– قص عليّ .

جعل هاينريش يقص وهو متحرجًا مسرفا في التقديم ويتوقف عن الحديث من الخجل ويتحفظ فعرض عن تجميل الحديث وطلاوته، فلم يلق باللائمة على سوء الأحوال الخارجية وحدها في تقلب لأوضاعه الداخلية وتكلم صراحة عن مصيره الغريب،وهو الميل إلى عيش حياة الطبقة المترفة، ثم استطرد في الكلام عن أساليبه النفعية الانتهازية وتحدث عن الضغط الذي ظن أنه سوف يلحظه واقعا عليه من زوجته فإيماءة زوجته إليزا توحي إليه بأنها لن تشق ولن تطمئن إلى حبه مادام عاجزا عن أداء دور العائل وجالبا عارا على ذويه من فضيحة الإملاق والعدم ، ولقد أوجعته هذه الإيماءة بكمد لا ينطق به متوسلا بالتنهد والتلميحات وحركات الرأس والنظرات المعبرة عنها .

وما أسوأ هذا الخطب في ملماته وهو يطيح بعقله وينزع عنه بصيرته ، بعدما تفاقمت الديون لكثرتها وتزايدها وتقلص الدخل من الكسب حتى لم يعد مفلسا فحسب بل مدينا بدين ثقيل، وحتى لم يتبق أمامه إلا أمران عقب التهديد بالفضيحة وتدنيس شرفه بعار هذه الفضيحة والأمران هما : إما الهروب وإما الموت.

قال موشج عقب روية:

– إنه ليتراءى لي أن تنتهي عن الجدل العقيم في هذه الأمور وتنطلق إلى آفاق جديدة، فصارح زوجتك وأفض إليها بما في نفسك، لأن كل أكذوبة ستنغص عليك وسوف تجعل أيضا الأمر عسيرا عليها أن تسامحك حينما تنجلي طلاوة الكذب وتعرف الحقيقة . . فلن تعتبر أنك تبغي تهوين الخطب عليها رأفة وحباً بل سوف تدرك أنها قد خُدعت وبُهتت ، ومعها حق . . فكان خليقا بك أن تصدق منذ زمن بعيد وتقول لها "أنا لا أستطيع أن ألبي لك ما تطلبينه، فالأمر كذا وكذا" . . فعسى ألا يفوت الأوان ، يا ليت الفرصة لم تزل بعد، فكم أتمنى لك أن تعي ما خبرته من موقف أخر عرفت فيه الألفة والتضامن، ففي الأزمات العصيبة تتآلف القلوب في عرى وثيقة . . فهذا أمر من الأمور التي خبرتها في أوقات المحن، فمن ثم لا تلومني أن أرى أنك لتزيغ عن الطريق الصائب مادمت تتصف بالرعونة في أمور التجارة والتوق إلى المظهرية . . فالانهيار متوقع حصوله عندما تكون الأحوال معاكسة بما يوجب اجتناب أية أخطاء . . فحقا أنا أعرف القليل عنك لذا استنتج من ذلك أنك تعاني حالة إفلاس وتراكم الديون، ولكنك لن تدع سبيلا للغفلة عما يعد انحرافا أو غشا أو تدليسا أو جريمة . . فهل أنا صائب؟

طأطأ هاينريش رأسه وهو ضعيف عاجز عن الرد . .

ويسترسل موشج:

– وأنت تشاهد هذه الحال أنه يوجد سنويا مئات من الناس في ناحيتنا تعاني من الإفلاس؛ فلنتقص عن هذه الحقيقة من قراءة جريدة الوقائع الرسمية ،فالإفلاس بات ظاهرة يومية، وكم هي منغصة ومكدرة للنفس ألا تحتم بهذا المصير والإفلات منه يتأتى بالهروب أو الموت. . ولكنه ليس مستحيلا القيام من هذه الكبوة والبدء من جديد، عندئذ سيلمس المعاني من الإفلاس كيف ينمو العشب بسرعة فائقة فوق كل شيء، فلا غرو البدء من جديد سيفضي حتما إلى سرعة استعادة الوضع المزدهر والقيام من حالة الإفلاس ، فهناك نصيحتي الثانية : لا تزاول تجارتك ارتجالا واعتباطا بلا دراسة يوما من الأيام على توهم أن معجزة سوف تعاونك يوما ما في الوقوف على قدميك، فأثبت أنك رجل نزيه لدى مكتب تسجيل الديون، واعترف بإفلاسك، فيا ليتك تصدقني في قولي" *رب منضدة نظيفة تفوق قيمتها أية منضدة غير شريفة مغطاة*" . . أي رب رجل أعمال تجارته نظيفة في أدائها لتفوق قيمة أعمال تجارية غير صريحة، فلابد أن تسجل صفقاتك بنظام دقيق لتعرف وضعك المالي ؛ فإياك وارتياد أعمال وصفقات وأنت مشفق من مغبتها ومدخول الضمير، فلو أصابتك ضائقة تفقدك الأمل في الأمان " ليحفظكم الرب" بسبب نفاذ قوتك، فإننا سوف نجد أنفسنا ورزقنا .

شكر هاينريش موشج حيث أحس فجأة أنه معاف من الازدراء كأنما ألقى عنه أثقل عبء في حياته، ،وأيضا أيقن أنه آخذ في الاشتداد والتقوي، وأصبح نشيطا ذا همة ورأسه خالية من الأفكار البالية، لذا انطلق إلى سبيله، وهو يريد عمل ما هو ضروري دون إخفاء شيء عن إليزا ودون تصنع الصدة أمامها، ليعيش معها في صفاء ونقاء، فلن يفقد الشجاعة التي تؤهلهما أن يجعلا بقية حياتهما على وئام ووفاق.

ووطأ هاينريش عتبته متأخراً عن المعتاد وهاربا في هلع على غير المعتاد، ولم تقابله إليزا إلا بالأسلوب العادي في المقابلة، فانحنت وجثت على ركبتها أمام دولاب الملابس والحقيبة بجانبها قد كانت مغلقة إلى النصف . . ثم قالت دون أن ترد السلام وتتطلع في وجهه:

– أنا ماضية

وبعد لحظة سألها هادئ المزاج إن كان هذا نوع من المؤاساة له، ردت عليه إليزا قائلة:

– أنهم يطاردونك الآن كالمجرمين، لقد مرّ علينا اليوم موظف الحجز، ثم ذهب إلى حال سبيله؛ فأنا متورطة في كل هذا معك وعلي أن أعلم بكل شيء، وغدا سأذهب مبكرا مع تيودور إلى ريشترزفيل . . يا لهي كيف انخدعت فيك؟ !

قال هاينريش بعد توقف طويل:

– وأنا أيضا انخدعت فيك وأنت تتخلين عني في محنتي.

فقالت له اليزا:

– أنت الذي أتيت بهذه المحنة.

فأجابها قائلا :

– إن المحنة تبقى محنة بغض النظر من الذي جلبها .

وظن أنها توشك تبكي فوشيك البكاء يأذن بأمل في الوفاق، ولكن القلوب الجافية لا تبكي، فلمسها على ظهرها، ثم قال لها أنه عاد اليوم وكان ينوي أن يفضي لها بما في نفسه ويخرج إلى النور ما في طويته، ويترجاها أن تسامحه على فشله. وصرحت إليزا والدموع تسقط من عينيها قائلة:

– وهل سيغير ذلك من الفضيحة وكارثة الفقر.

قال هاينريش:

– سوف أقوم من كبوتي واستنهض قوتي متحمسا للخروج من المحنة عن جدارة لأثبت للعالم من أنا ؟

فأخذت إليزا تتشنج وهي تتحدث مرة أخرى عن المخادع الذي يوهم الناس بكريم أصله، وهو هاينريش المنهار الذي أخذ وجهه يربد وهو يقول لها .

– لا تقولي ذلك أنا لم أمت بعد .

لقد تذكر أبيه الذي نقل عنه هذه العبارة حينما كانت أمه توجه

أبيه بحقائق لا يحب سماعها . وانزوى في المطبخ وشرب خمرا وتمنى لو يعود به الزمن كما كان طفلا صغيراً ويجلس في حظيرة الدجاج منزوياً عن أسرته بعد خلافه مع والده الذي يصفح عنه ويسمع صوت البوق الذي ينفخ فيه والده حتى يعود إلى البيت مرة ثانية، لكن إليزا تركته ودخلت للنوم، وأراد هاينريش في منتصف الليل أن يقصد فراش الزوجية مخمورا وهو يمسك بشمعة في يده ولكنه وجد باب غرفة النوم موصدا، أما باب غرفة الطفل تيودور فكان مفتوحا نصف فتحة، فدخل هاينريش وابنه الصغير يتنهد في الفراش، فشاهده هاينريش وربت عليه قبل أن يطفئ الشمعة بنفخة واستلقى بجانب سرير الأطفال على فراء الخروف للمرة الأخيرة في حياته.

ولم يكن أحد هناك عندما فتح عينيه في الصباح، واختفت إليزا وكل أدوات المطبخ الفضية كما تحقق هاينريش من تطلعه بالنظر في الشقة. . ولكن ذلك لا يعنى هذا أن رحيل إليزا رحيل نهائي، ولكنها أخذت هذه الأدوات الفضية معها لكي لا يفكر في البحث عنها في أيام هجرها منزلها، إذ كل الأشياء الأخرى باقية، أيضا ما كانت تعده إليزا على أنه أغلى عندها وهو صورة هاينريش المرسومة والمعلقة في غرفة الخزانة السويسرية والتي مازالت موجودة في حوزتنا حتى الآن، وتذكر في هذا الوقت القول المأثور "يهبط الحب على الأرض ثم يهرع عائداً إلى السماء"

فأخذ يدور هاينريش في الشقة فاقد اللب ومنهار والتفكير يضنيه، فجلس على الكرسي ثم انتقل إلى الكرسي الآخر وظل حيناً طويلاً وهو جالساً متحيراً شارداً ثم وقف وهو يقول: يا ليت القرارات يمكن أن تحسن من موقفي ولكن النهاية واقعة لا محال. . وما كادت تزول الحيرة حتى انتابه تعجب من ذلك الشعور بالبهجة المباغت الذي بعث في نفسه هذه النظرة وأوحى إليه بهذا التصور أنه لا جدوى من عمل أي شيء في هذا الشأن. . فخرج من الغرفة وخلع ملابسه لينام عاريا في السرير.

وأبت إليزا بعد مرور عقود أن تتحدث وتفصح عن هروبها إلى بيت أبيها . . هكذا كتبت حفيدتها في الكراس الأزرق فروت إليزا كما جاء في المذكرة أن أباها لم يقبلها مع هوسيانا إذ قال لها "لقد مضى الطفل عائدا "وما ظنه هاينريش من عودة إليزا عقب أسبوعين لا يدل إلا على زيارة قصيرة لوالدها، وهذا ما خطر بباله لأول وهلة، وعادت إليزا للبيت لتأخذ شيئا . . عندئذ انتصب هاينريش وكتب صك الدين بأصابع مرتجفة وكان هذا الدين لصالح إليزا، وبهذا اسقط عنه قيمة هذا المبلغ أي مقدار الدين، ولكن إليزا قد حسبت قيمة هذا المبلغ.

ونضج خيال هاينريش بما يؤهله لرسم خطة للهروب، حيث فكر في الهروب قبل المقابلة الأخيرة مع إليزا والتي ربما ظن كل منهما أنها

لن تكون المقابلة الأخيرة، فكر هاينريش من قبل في الهروب، ولبث حينا يفكر حتى خلص إلى الخطط الرامية للهروب، وعدل هاينريش في تنفيذ نصيحة موشج بإعلان إفلاسه لأنه ربما قد يسرع القضاء بسجنه.

لقد بعث له الدائن (إليه واليزا) في منزله محضر الحجز وكان هذا الدائن أحد الموظفين الصغار، وهو دنستلر – عامل الحبال في زيوخ، وكان هاينريش مدينا له بخمسة جولدات ثمنا لتوريد الخيوط ، وهذا أمر مضحك ، وقتما تذرع الدائنون الكبار بالصبر، وماداموا هم متذرعين بالصبر فلم يجد هاينريش داعيا لإعلان إفلاسه قبل الأوان، ولم يسقط هاينريش من فكره إمكانية حدوث معجزة وإن كان يسلك من منطق التجارة كما يسلك جميع المرتادين في هذا المجال وقتما غشي أمه مرض شديد قد جعلها طريحة الفراش. . وبعدما انتقلت في أول الصيف إلى ممر شترل لأن العلاقة الودية بينها وبين إليزا لم تستمر طويلا وما كان هاينريش إلا أن يتمنى وفاتها، فما سيورثه هاينريش من المتبقي من ميراث أبيه يمكنه أن ينقذه من مأساته ولكنها شفيت ونفذت الجلودات الاخيرة في نهاية سبتمبر. كان السبب في خراب شركة الحرير هو أن هاينريش قد أخذ في عهدته صكوك الدين، كما أنه باعها بأربعمائة واثنين وسبعين جولدا واختلس منتجات حريرية مملوكة لشركة سفارتسبناج في كيلشبرج

بقيمة مئة وواحد وستين جولدا، ونهب رصيد مدخرات تيودور بقيمته المتواضعة عشرين جلودا . . ارتكب هذا الإثم بخزي مهين وعن علم تام بأنه لن يأتي بعد بحقيبة فارغة أي لن يأتي صفر اليدين.

لم ير أحد هاينريش منذ منتصف أكتوبر، بعد أن ترك خطابا إلى إليزا يعبر فيه عن وداعه لها وكتبه بريشة أوزة على ورقة دقيقة وكانت هذه الريشة موضوعة في كتاب إليزا في فن الطهي وبالتحديد في قسم الخضروات، كتب هاينريش:

"حبيبتي إنما اكتب إليك في ساعة حزن مرير لا أجد علة تدعني أظن أنني لم أجد نفسي ذات قيمة عندك، لذا أردت أن أقول لك أنني حيثما أمضى إلى المجهول الليلة فلا تحزني على فراقي. . وداعا أوصى بك خيرا وبالطفل وأودعكما لحماية الله وحفظه"

وافتتحت محكمة بفيفيكون جلسة قضية الإفلاس في الحادي والعشرين من نوفمبر عام ١٨٥٠ في الادعاء على هاينريش بلوتشيلى ابن السيد المرحوم القس بلوتشيلى في أوردورف فيون زيورخ ، والمقيم في بفيفيكون، وفيها أمرت المحكمة بوصف الممتلكات القائمة في حيازة هاينريش وتحريزها والإغلاق عليها بالشمع الأحمر ثم أعلنت المحكمة عن إفلاس الشركة، تزاحم الدائنين في إشهار علني بالوسيلة المتاحة لها وهى الإعلان عن الإفلاس في جريدة الوقائع

الرسمية في لانديوت جريدة يوم الأحد الزيوريخية وجريدة الجمهوريتين بقراءة الإعلان عن الإفلاس علانية في كنيسة بفيفيكون. وشرعت المحكمة تعلن هاينريش بفقدانه حقوقه كمواطن رشيد والتمس مجلس المدينة من المحكمة في زيورخ أن يتولى الوصاية على زوجة المدين وطفله. رفع المتضررون بطلبات تعويضهم في ذلك الحين حتى اليوم السادس والعشرين من نوفمبر في نفس العام وتقدموا بعروضهم لمكتب الشهر العقاري والتوثيق ، حيث بدأت المحكمة تحديد مستحقاتهم من تعويض في اليوم الرابع من ديسمبر، ويعنى هذا تنفيذ إجراءات التفليسة وتزاحم الدائنون مجتمعين.

وسجل المتضررون من الإفلاس – شركات وأفراد – مطالبتهم بالتعويض عن خسائرهم في هذه الفترة حتى انقضاء مهلة التقديم وكان عددهم لا يقل عن ثلاثة وعشرين.. ثم تقدم كارل أخو هاينريش بالتماسه الرابع والعشرين مؤخرا وهو يطالب بالحصول على محرك ماكينات نسج الحرير بالريح ، ولكن المتضررة الأولى هى إليزا.. وتراوحت الديون المنفردة المتبقية بين عشرة جولدات – وهو الأجر المستحق للنساجة بولينة شلثبرج من بفيفيجن بمبلغ وقدره ألف ومائة وتسعة وعشرون جولدات – والحسابات المفتوحة لشركة بستولازى وأولاده بزيورخ كمستحق عن الحرير الذي حصل عليه منها، وأيضا أدعت الشركتان المذكورتان "شتاوب" في هورجن

وشفارتسنياخ في كيلسبرج بمستحقاتها في الديون، وتقدمتا كلتاهما بالتصريح الآتي في خاتمة عريضة دعوتهما:

. . . ونحن نتمسك بحق الإدعاء الجنائي على المدين لارتكابه جريمة اختلاس. وطلبت شركات أخرى التدخل في إجراءات الإفلاس وتزاحم الدائنون وهى شركة تفصيل الملابس كوخ بفيسترفى زيورخ المدين لها هاينريش بجلة فرحه - شركة تجارة اوكسترا لصناعة مكاتب التلاميذ - وصاحب المكتبة شرلتهس في زيورخ - وكان دخوله للمطالبة في مستحقاته عن توريد كتب بقيمة ثلاثة عشر جولدات وسبعة شلنات - وصاحب مخبز إيج في هورجن وهو زوج أخت هاينريش حيث أقرضه خمسين جلودنا وأضيفت مجموعة مبالغ أخرى في محضر التفليسة حيث غطت ثماني وثلاثين صفحة، حتى بلغ الدين المشتكي عليه أربعة ألاف وثلاثة مائة وأحدى عشر جولدات، كان الأجر الأسبوعي لعامل أو عاملة النسيج ثلاثين جولدا، وإذا قضوا ثلاثة وثمانين عاما في الجلوس على المغزل فكانوا سيتقاضون أجرا أعلى بقليل أي كان يلزم أن يعملوا ثمانية وثمانين عاما ليحصلوا على دخل يوازي قيمة دين هاينريش في مدة سنتين.

وهكذا خضعت الممتلكات لإجراءات التفليس التي أفتحت آنذاك وكان رأس المال العامل ليس جولدات سائلة بل أدوات النساجين العديدة فضلا عن أطر الأنوال المصنوعة من خشب صلب

ذات قاعدة دوران وأكثر من ألف محور دوران في المغازل . . وأيضا المكاتب ودواليب الخطابات والأسلاك النحاسية وكماشات ومقياس الياردات ، وهذه كلها خضعت لإجراءات التفليسة والبيع في المزاد الجبري ولكن وجد الدائنون أن الأمتعة الشخصية التي خلفها هاينريش في مكتبه والمطبخ الموجدين بناحية بفيفنكون وأيضا التي ذكرها في قائمة رأس المال العامل الممتلكات الفعلية -عديمة القيمة:

حذاء برقبة ممزق - قباعات فراء بيضاء - قميص حرير أسود - كرافتتان - ثلاث ياقات قمصان - قميصان قديمان من القطن - ثلاثة جوارب حذاء برقبة وواحد غير مستقيم - رداء نوم قديم مصنوع من القطن - زوجا بنطلونين داخلين قديمين- أسورة ذراع تحمل شعار الاتحاد السويسري - أربع مغارف - دفتر حسابات فارغ - برميل نبيذ - ست مطارق - أربعة مقلاة حلقية - غطاء حلة قديم فخاري - مقياس أحجام.

الفصل الثامن عشر

نفض الأهالي المتدينون في قرية بيفيكون عن معاطفهم ثلج الشتاء وهم في طريق الخروج من قاعة المحكمة الملتحقة بالكنيسة وكانت الساعة العشرة صباحًا من يوم الأربعاء الموافق ٤ ديسمبر من عام ١٨٥٠.. بينما كان هاينريش جالسًا تحت شمس الإسكندرية يحملق في الفضاء المفتوح وكان يخفض نظره عن مياه البحر من آن إلى آخر وأمامه مياه خليج الميناء الشرقي الممتدة في اتجاه الشمال المطلة على شبه جزيرة فاروس المبنية عليها قلعة قايتباي والتي كانت مرفلة باللون الأبيض.

أما أنا فكنت جالسًا أمام الخليج أنظر بعد مرور مائة وخمسون عامًا من ذلك التاريخ إلى المياه وأتخيل عيني هاينريش وكأنهما أمامي، وكأنني أنظر إلي عينين منكسرتين لشخص هامد ضائع بدأ في هدوء رحلته في بحار بعيدة دون أية حماس للمغامرة، لم يكن سعيدًا رغم هذه الشمس الساطعة، نظرت إلى عيني هاينريش الباهتتين

واستطعت أن أسبر في عمقهما فراغاً وضياعًا وظلمًا، كنت أتنفس معه الهواء المشبع بملح البحر وأشاركه أحزان.

عندها شعرت بأن هاينريش يواسيني قائلاً : لقد عشت أياماً وليالى مثيرة وجميلة في الأيام العشر الأخيرة لرحلتي البحرية من مرسيليا، وكنت عندما يرهقني الظلام دائما ما أجد بريق أمل، كان الوقت لم يزل ليلا عندما وصلت باخرتنا إلى الإسكندرية، وكان لزاما على البحارة مراعاة الطريق الضيق وتلافي الكتل الصخرية في الطريق إلى الموانى، مما اضطرنا إلى الانتظار حتى ظهور ضوء النهار وإلى الإرساء في عرض البحر.

وعندما أرسل الفجر خيوطه يعلن عن ميلاد يوم جديد، خرجت على سطح الباخرة وكان البحر هادئا وخاليًا من الأمواج، كنت أقف مشاهداً ما يحدث من أعلى سور الباخرة، وهنا شعرت بأطلال وحطام نفسي تتجمع مرة ثانية في خيالات مدينة الإسكندرية.. ثم أدركت في الحال ولأول مرة أنني سليم، بعد إن فقدت كل شيء حتى نفسي!.. ولكنى الآن في هذه المدينة التي تموج بالحياة وتلك الأرض الصلبة أمام عيني أقف عليها وكأنني أولد من جديد .. لم يطل اندهاشي بضع لحظات، وانتابني أحساس الغربة وفقد الوطن فأصبحت مذهولاً منقبض الصدر!

صمت هاينريش، وكنت أرتعد، كنت أخجل من كل الرفاهية التي أعيش فيها. فمنذ ساعة ونصف كنت أجلس في مطعم فندق ميتروبول حتى أتناول الإفطار، مسترخياً على شيزلونج مبطن ومريح مع خلفية لصوت هادئ لإيقاعات بيتهوفن ويقوم بخدمتي ثلاث من المضيفات يرتدين بلوزات بيضاء ناصعة بصورة نادرة جدا . . نمت في سرير واسع ووثير، وبدلا من أن أشعر بنعيم الاسترخاء ضايقتني أصوات الشارع المزعجة ونعيق آلات التنبيه وصراخ الترام. . وحينما لم أعد أتحمل وحدتي في هذه الغرفة اتصلت بصديقتي التي تعمل بأوروبا قبل النوم لسماع صوتها حتى اشتكي لها من الأمطار التي تتساقط على نافذة الغرفة. . قلت لنفسي لا يمكني الاستمرار هكذا، تفقدت سور قلعة قيتباي. وذهبت مسرعا إلى الكورنيش القديم الذي تحول الآن إلى ممشى يقع بين سور القلعة والشارع ذي الستة حارات ومداخل المدينة نحو محطة قطار الرمل خلف فندقي الذي ضللت الطريق إليه . . وبعدما جمعت أشيائي ودفعت الحساب . ذهبت سيرا على الأقدام إلى ميدان التحرير ثم إلى ميدان محمد علي الذي رأيته وكأنه قطعة رائعة ذات الطابع الأوروبي، واتجهت إلى زقاق ذي طابع شرقي يتخفى في شارع جانبي، ووجدت هناك أحد الفنادق المجهولة وغرفة تعينني على وحشة الوحدة. . وضعت نفسي على مضجع حديدي ونظرت إلى

سقف الغرفة وأدركت أنني لا استطيع البقاء هنا بدون مشروب يبعث الدفء ووقفت في الحال وخرج للشارع.

سائق التاكسي لا يفهم غير المصرية.. سألته: فين الوسكي؟ هز السائق رأسه وحرك يده كأنه يفتعل تناول كأسًا، أظهرت له النية بأنني أرغب في الحصول على زجاجة كاملة، فأومأ بالموافقة وذهب.. تحرك بالسيارة لمدة ربع ساعة في هذه المدينة ذات الثلاث ملايين نسمة عاودت السؤال مرة ثانية بعد ربع ساعة: أين المكان؟.. أشار السائق إلى الأمام وأدركت بعد نصف ساعة بأن المدينة تقع خلفنا، مما جعلني اعترض على ذلك.. أكمل السائق الطريق. إلى بار كان يقع بعيدا عن المدينة، نزلنا من التاكسي، حيا صاحب البار واحتضنه، ثم سألني صاحب البار باللغة الإنجليزية إذا ما كنت أرغب في كأس من الوسكي؟.. قلت له أنني أحتاج إلى زجاجة وليس كأسا.. إنه لا يبيع زجاجات ولكنه يعرف محل قريب من هنا.

ذهبنا إلى هناك.. الويسكي المعروض على الرفوف ويسكي مصري حسبما فهمت يمكنه أن يقضي علي.. أومأت برأسي وقلت له: إذاً زجاجة جيني ووكر.. تردد قليلاً، ثم ترك المكان وعاد بعد فترة قصيرة بكيس بلاستيك أخضر اللون. إنه طبعًا يبيعها بسعر السوق السوداء. أخرجت الزجاجة من الكيس كانت

تبدو حقيقة، وسدادتها سليمة، طلبت نصف زجاجة ودفعت ثمن ثلاث أرباع. . كان السائق مسرورا بطريق العودة وقال : وسكي جيد، وسكي جيد !، قلت له : نعم . . نعم! وكنت متأكداً بأني قد تم خداعي كالحمار . . نزلت في ميدان التحرير وأعطيت للسائق مبلغا من المال يظهر له ثرائي الذي ينتظره نظير تعبه معي . . ذهبت إلى الفندق حيث غرفتي ذات الإضاءة الخافتة، وفتحت الزجاجة استنشقتها وأخذت جرعة صغيرة فأدركت للتو بأنه مشروب أصلي.

شربت، ورغم ذلك ظللت حزيناً مهموماً . . حاولت النوم، ولكن لم يغمض لي جفن، أحملق في الفضاء، وأرى هاينريش في الغرفة الخلفية لصانع الأحذية المالطية، حيث كان مستلقيا على القش . يحملق في الفضاء . . أمس مهلهل . . وغد مظلم . . كيف يمكن تحمل هذا الفراغ؟ كيف يستطيع الإنسان العيش بلا جذور؟

لم يكن هذا الذي أنام عليه كيس من القش، كان جلد نمر سيئ الدباغة وبه شعر خفيف، وقد أجر لي الغرفة الخلفية بقال يوناني ولم ينس الإضاءة المتوهجة . . لم أكن فاقدا للأمل على الإطلاق لأنني حتى ذلك الوقت كنت أعتقد بأن ابتعادي عن زوجتي وابني مسألة مؤقتة.

تخيلت لو أن هاينريش كان قد اطلع على حجم الشقاق الذي سيضع نهاية لعلاقته الزوجية في المستقبل لو كان قد اطلع على هذا الأمر بالعقل والمشاعر، بالتأكيد كان سيدرك حجم المصيبة التي وقع فيها، كان هاينريش أحيانا يشعر فعلاً بانتهاء العلاقة فيفقد نشاطه ويرقد مريضا متألماً. يحك جلده باستمرار ويفرغ الخمر في الفراغ، ونجد مكتوبًا في مذكرات هاينريش التالي: وذات صباح وبعد أسبوع من المعاناة والغرق في المرض، والضياع بعيدًا عن الوطن، محمومًا من لدغات البراغيث المنتشرة هنا، فتحت عيني واستطعت تحريك جسدي، رفعت نفسي مقاوما ضغطاً وحشياً كي أتحرك وأنشط.

ذهبت إلى ميدان القنصلية ولمعت حذائي بورنيش الأحذية، واشتريت من بازار قريب عصًا مصنوعة من جلد فرس النهر.. مثل تلك العصي التي يستخدمها الأولاد الذين يمتطون الحمير.. إنها عصا طيعة، اشترت بيضة نعام ملونة احتفالا بهذه المناسبة.. دوى صوت المؤذن للصلاة هذا الصوت الذي طغى فوق كل الأصوات الصاخبة، في هذه اللحظة انقطعت الأحداث التي أعيشها مع جدي الأكبر، وتخيلتني أطلب منه أن يكمل لي حديثه عن حياته، وانتظرت عودة صدى صوته.. كنت أتجرع من الزجاجة من وقت لأخر، وعندما بدأت عيناي في الإغفاء قال لي جدي الأكبر بنبرة اعتذار

تغلفها السكينة بعد أن ناديت عليه: "قد نجبر على النداء، ولكنه يجب علينا الرد"

كان يوم آخر ممطراً ملئ بالعواصف والرياح، وبزفير ملئ بالأبخرة، كنت أسير في الشوارع بلا مشاعر أو أحاسيس . . المشاهد الخارجية لم تجذبني، وروح هذه المدينة كانت غريبة بالنسبة لي . . جلست على أحد المقاهي لأدلك ركبتي من برودة الجو، وشربت الكابتشينو، ثم أخرجت أوراق تشارلز . . لقراءة ما جلبه الابن معه مما سمعه من أبيه عن الإسكندرية وأستعيد ما كتبه وهو رجل عجوز يتحدث عن ذكرياته . . *كان والدي يرغب زيارة "لابلاتا" بالارجنتين حيث كان كثير من السويسريين يتركون بلادهم ويعيشون هناك ويرحبون بالزائر، ولكن الحمى الصفراء ظهرت فجأة هناك . . وكان والدي مجبراً على الذهاب إلى الإسكندرية . . لم يكن لدى تشارلز أطلس ليستدل به على موقعه . . كان يعتقد بأن مصر تقع قريبة من الطريق إلى الأرجنتين . . أو أنه ربما كان يعتقد بان هاينريش أستقر على شاطئ الإسكندرية خوفاً من الأوبئة على شواطئ لاهافر، أو مرسيليا .*

قرأت لتشارلز جملة تفيد بأن السيد "بلاتا" السويسري نصح بأن يبقى هاينريش بالإسكندرية وبأن يعمل بالتجارة وبأن يصدر القطن المصري، وبقى الحال هكذا لمدة عام . . لم أسأل نفسي لماذا يجب

على جدي هاينريش سماع نصائح السيد بلانتا والبقاء في الإسكندرية؟ . . إذن ما هو هدف بلانتا ؟ ومن يكون هذا المغامر الذي يجرؤ على نصح السيد بلونشيلى بالمغامرة وهو مفلس تماماً ؟ كانت هذه الأسئلة الحاسمة، التي أرشدتني إلى قوة السيد بلانتا، والذي نزل ارض مصر عام ١٨٥٣ وقام بتأسيس الشركة ! أي بعد ثلاثة أعوام من تواجد هاينريش في مصر . . وربما كان هاينريش يعمل لدى بلانتا في أعمال تجارية وكانت المفاجأة ! أن اسم لابلانتا مكتوب على مذكراته والتي وصف بها جميع السويسريين المقيمين بمصر بأنهم زملائه ويعملون معه . . ربما يكون هاينريش قد حصل على وظيفة أخرى ببنك قد تم تأسيسه باسم إستوريو إجيبسيان، وكان معه السيد يوليوس بلوم الذي كان صديقًا للوالد ثم التحق فيما بعد بالوزارة الملكية للمالية.

ليس هناك شك في أن صديق هاينريش، يوليوس بلوم النمساوي الجنسية كان موجودًا بالفعل في ذلك الوقت وعاش في مصر حتى أصبح اسمه بلوم باشا ولكن الغريب والمشكوك فيه هو تداخل التواريخ حيث جاء بلوم أصلاً إلى الإسكندرية في عام ١٨٦٤ كموظف تابع لشركة القروض في فيينا وتدرج في العمل حتى تأسيس البنك النمساوي المصري الذي أصبح مديرًا له في عام ١٨٦٩ .

ويكمل تشارلز:

وأثناء عمل والدي بالبنك. وصل بمكانته الشخصية وقدراته وعلاقاته الخاصة إلى الدخول في دائرة المشاهير، وتعرف على عباس باشا الأول، الذي عينه مفتشا عامًا علي أملاكه، وكان الأمر مريبا أن يولى عباس باشا أبي في منصب كهذا وهو الذي كان يطرد الأوروبيين. . وقد مات مسموماً عام أربع وخمسين أو مات مخنوقاً.

طويت خطاب تشارلز وأكملت شرب الكابتشينو وفكرت في مدى احترام تشارلز لشخص والده وتقديره له وقد أثرت في هذه المشاعر بشدة.

أشرقت الشمس فجأة في حديقة النزهة بالإسكندرية وهى بمثابة رئة خضراء للمنطقة الشرقية للمدينة. . كانت الحديقة تقع في السنوات الأولى لتأسيسها خارج المدينة.

هنا في حديقة النزهة وجدت ما أبحث عنه بخلاف بحثي عن الهدوء، فقد وجدت مكانا استطيع من خلاله أن أتخيل كيف احتشد فيه آلاف السويسريين ليحتفلوا معًا ويغنون أغانيهم الوطنية ويقيمون عاداتهم مثل عادة الرماية والتي كانت الجريدة السويسرية قد ذكرتها قائلة: إن السويسريين قاموا بممارسة فن الرماية الرفيع، هل أخذ الحماس هاينريش أيضاً للقيام بذلك؟ هذا ما يصعب تخيله إذا علمنا أن هاينريش كان عجوزاً في ذلك الوقت كما أن ضعف نظره زاد من ضآلة هذه الاحتمالية لكنه على كل حال كان هناك معهم

وقد سافر خصيصًا من القاهرة للإسكندرية ليحتفل معهم بعيد ميلاد السويسريين، والعجيب أنني استطعت العثور على شجرة "البينوان" العتيقة والتي كان هاينريش قد التقط صورته الفوتوغرافية الشهيرة عندها .

جلست على مقعد حجري، التقطت للشجرة صورة، في الأول من أغسطس عام ١٨٩١ بحديقة النزهة . . كان ذلك مكتوباً على ظهر الصورة بالحبر الأزرق . . كنت أنظر من الصورة إلى الشجرة مقارناً بين الطبيعة الحية وتلك الصورة التي خلدت الأشياء داخلها .

في تلك الصورة كان هاينريش وكاترينا يجلسان على مقعد خشبي وبجوارهما كان يقف الابنان رودولف وجورج وبين أقدامهم كان يجلس كلب . . لم يكن ابنهما تشارلز موجودًا بالصورة حيث كان في تلك الأثناء يعيش في تريست ويعمل تاجرًا، كان تشارلز سعيدًا في حياته على الرغم من أنه لم ينجب أطفالا، الأم كاترينا في منتصف الأربعينيات من العمر، امرأة ناضجة تضع يدها على فخذها، وعلى الرغم من سواد شعرها الناعم إلا أنها بدت مشرقة في ملابسها البيضاء، رأسها كان منحنيا إلى أسفل مما أحجب عينيها عن الصورة. كان هاينريش في السابعة والستون من عمره متبسطا في هيئته مرتديًا سترة يوم الأحد الداكنة والطربوش وكانت لحيته بيضاء غير حليقة، كما كانت نظرته يبدو منها القسوة، أما

بالنسبة لنظرات الابنان فكانتا جادتينوالكلب كانت نظرته حزينة وكأن شيئًا ثقيلا حزينا مريبا يلقي بظله على الأمور بالصورة.

وكأن هاينريش يتحدث معي من جديد ومن تلقاء نفسه، لم يأت حديثه تلك المرة من حديقة النزهة ولم يتحدث عن أشياء عائلية بل تحدث عن نفسه وعن شخصه، قال لقد اجتهدت كثيرا في حياتي وشققت طريقي عبر الفقر المصري من ترعة المحمودية حتى وصولي لوسط المدينة حيث قصر محمد على في ذلك الميدان الذي كان متواريًا، الآن أنظر عن قرب إلى قصره الذي يذكرني بقصور المماليك وحين أقترب منه فأجده يتشابه مع كنيسة سان مارك التي تم الانتهاء من بنائها في عام ١٨٥٥ أي في منتصف المدة التي قضاها هاينريش في الإسكندرية، وهنا تساءلت هل حاول هاينريش لعب دور القس الإنجيلي مرة أخرى حسب عقيدته وهنا تذكرت كلمات تشارلز عندما وصف والده بالسعادة في دوره ممثلا للقس الألماني في مدينة الإسكندرية، وهنا سمعت هاينريش يتحدث بصوت متهدج: إنه لمن الصعب علي الاعتراف بالأسرار الخفية وهنا توقف هاينريش مرة أخرى عن الكلام وانتظرته أنا رغبة مني في ألا أكون ملحًا عليه ولكن بعد مدة وجدتني أقول له، إن الأمور كلها قد انتهت وهنا عاد قائلا: أقرأ ما هو مكتوب على قبة الكنيسة من الداخل، اقرأ الكلمات الأخيرة، إنه الانتقال من جيل إلى جيل. نعم، هذا هو ما أعنيه أن

لدينا قاسمًا مشتركًا، فإن كنت أنا عبدًا، لصرت أنت أيضًا عبدًا دون أن ينقضي الأمر كما تدعي، إنني لا أريد أن أحكم على شيء ولكن أريد أن أطلعك بثقة على شيء مهم. . عند هذه النقطة انقطع صوته واعتقدت أنه قد ابتعد عني وقلت مناديًا عليه: معذرة أين أنت؟ معذرة لا أسمعك!!. وهنا عاد يتحدث من جديد، لقد جئت إلى هنا ولم يعرفني أحد وبالتالي لم أمثل أي شيء محدد وكنت بهذا حراً، حر في كل شيء، حر في أن أكون أي شيء، وهنا في استجابة إلى رغبة أبي القديمة ادعيت أنني قد درست علوم الدين وذكرت ذلك لبعض من معارفي، وذكرت أيضًا أنه بعد انتهائي من الدراسة لم أكمل مسار عملي كقس لأسباب شخصية وحينما جاءت ساعة الاختبار وتم الانتهاء من بناء كنيسة سان مارك التي كان معظم روادها من المسيحيين البروتستانت القاطنين في مدينة الإسكندرية من الألمان والفرنسيين والسويسريين. وطلبت الكنيسة من حكومة بروسيا إرسال أحد القساوسة للعمل بها أرسلت بروسيا بالفعل قسا اسمه هاينريش سيور وفي يوم ما مرض هذا القس مرضا شديدًا وهنا وجدت الأصابع تتجه نحوي لتصبح كذبتي الكبرى، حقيقة لابد أن أقوم بها.

هنا كان لدى أحد خيارين: إما إنقاذ ماء وجهي والقيام بدور القس أو تدمير سمعتي بإظهار كذبتي، وهنا في حقيقة الأمر كان من

الصعب على أحد أن يتعرف على كذبتي ومن ناحية أخرى لم يكن صعبًا علي تقمص هذا الدور حيث أني قد سمعت مئات الخطب التي ألقاها والدي أثناء عمله كقس، ففضلت المثول للخيار الأول وإنقاذ ما يمكن إنقاذه ليكون آخر ما أفعله ، فهذا آخر ما فعلته في حياتي وهي أن ارتدي زي القس وأن أريح روح أبي وأمنيته القديمة التي قالها لي في ذلك الوقت إني أراك قسًا . لأصعد المنبر كخادم مزيف للرب ونصابًا يخطب أمام عشرون مؤمنًا بضمير غير صاف، لألقي بهذه المشاعر آخر كلماتي وفي اليوم التالي أخذتني حمى عصبية أودت بي على عتبات النهاية.

صمت هاينريش فسألته هل يتذكر آخر الكلمات التي تحدث بها من الإنجيل في خطبته؟ تحدث بصوت عال وكأنه يصد الضجيج الآتي من الخارج قائلا: نعم أتذكرها .

اقترب مني وهمس في أذني وكأن الأمر لا يخص أحدًا سواي، ولا يجب أن يسمعه أحد، ردد إليّ جملته الأخيرة: في هذا العالم لا يتملككم سوى الخوف.

الفصل التاسع عشر

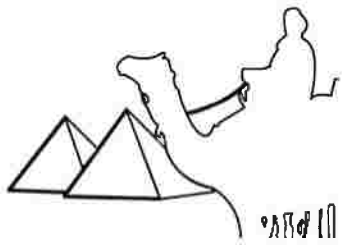

سافرت بالباص عائداً إلى القاهرة . . لم تتخذ الطريق الزراعي حسبما تم إخبارنا، بل سافرنا عبر الطريق الصحراوي المتلئ بالرمال على اليمين واليسار، وشاهدنا في الباص عرضاً صاخبا لفيلم درامي مصري ظهرت فيه امرأة ترفع السكين على حبيبها بينما فاجأتها امرأة أخرى بمسدس من الخلف، توقف الفيلم فجأة! . . لم يبال السائق ذو الملامح الناعسة بإكمال فيلم الفيديو من المكان الذي توقف فيه بل قام بإرجاعه مساحة زمنية تصل إلى عشرين دقيقة قبل النقطة التي توقف عندها . واضطررنا إلى مشاهدة هذا الجزء للمرة الثانية، ولم يخطر ببال أحد من الركاب أن يقوم ويشتكي للسائق بأن نهاية الفيلم سوف تفوته نتيجة لضيق الوقت، فيبدو أن النهاية كانت متوقعة ومعروفة للجميع بما فيهم أنا أيضا . . نعست قليلاً ومالت رأسي جانباً ثم شعرت فجأة بيد نسائية تلاطف وجهي بنعومة، كان ملمس اليد ناعم ولطيف إلى أقصى درجة، ملمس يد

نسائية كتلك التي نراها في الأفلام فقط، استيقظت على صوت ضحكات، كان تاجر قد وقف في الممر الموجود في وسط الباص وأمسك في يده عصاً مصنوعاً من العاج تنتهي بريش لتنظيف الأتربة، كان قد مسح بها وجهي ثم قدمها لي بوضعها فوق فخذي وبطريقة لا تسمح لي إلا بشرائها فقمت بشرائها دون تردد، بعد ذلك وصل الباص إلى القاهرة.

مازال أمامي أربعة أيام حتى أسافر بالطائرة عائداً إلى بلدي، لم يعد لدي أي خطط محددة، أقصى ما يمكنني القيام به هو زيارة الأهرامات مرة أخرى.

ربما يمكنني أيضاً زيارة المدافن البروتستانتية الإنجليزية، فمن المحتمل أن يكون الجزء الموجود من شاهد القبر قد ظهر، لكن هذا الحماس وحب الاستطلاع لم يفلحا في شيء، بعد هبوب رياح الخماسين المعبئة بالرطوبة وشروعها في إزاحة تلوث الهواء إلى أسفل حتى أصبحنا نسير وسط شبورة رملية، وبهت نور الشمس لتصبح مثل قمراً باهتاً. كل هذا جعلني أرقد متعباً بشدة وأن أنام طوال الوقت.. باستثناء ذلك قمت بزيارة السيدة "ر" في مكتبها خلف السفارة السويسرية وملئني الأمل حينما أخبرتني أنه هناك أخبار جديدة تخص البحث عن أثر لجدي، فهناك سيدة سويسرية ولدت وتعيش هنا في القاهرة وهي في انتظار زيارتي لها في أقرب وقت

لتزودني بمعلومات دقيقة عن الموقف . . قالت لي أن اسمها "وردة" وهو يحمل نفس المعنى للكلمة باللغة العربية.

ذهبت في الحال إليها وكأنني كنت أخشى أن تذبل صديقتنا قبل أن أحصل منها على الرسالة الحاسمة . . حينما التقيت بها وجدتها إمرة عجوز ممتلئة بالنشاط، لها عينان بنيتان ممتلئتان بالحيوية وروح خفيفة، أخذت تتحدث وسط حوائط وأثاث قديم وكتب مصفرة ساعات طويلة عن حياتها وعن جدها الذي انتقل إلى مصر كرجل أعمال في غضون عام ١٨٦٠ وأبيها الذي قام بإدارة مصنع للجبس وقوالب البناء ، وزراعته لأنواع نادرة من الأشجار في منطقة "العويدي" . . ثم انتقلت في النهاية للحديث عن حياتها الشيقة الممتلئة بالأحداث المتنوعة.

والتي أتاحت لي فرصة رصد رسالتي الأساسية بسهولة وعدم الإحباط بعد أن عرفت أنها لم تكن أساسية كما كنت أرجو. . أخذت "وردة" البالغة من العمر أثنان وتسعون عاماً تحكي أنها قضت بعض سنوات طفولتها في المدرسة الداخلية الوحيدة الموجودة في ذلك الوقت في القاهرة pensinat de la Mere de Dien وكان معها في المدرسة الأختان هيلينه وجيزلا بلوتشيلي، كانتا الاثنتان طيبتين ولهما أنفان مفطوستان قليلاً . . أخبرتني أنها مازالت ترى الاثنتين أمام عينيها في الزي المدرسي الإلزامي، مازالت

ترى الزي الذي ارتداه الجميع في الشتاء، الجيب الصغير الأزرق المصنوع من الصوف بحوافه القطنية والأزرار الذهبية في الجزء الأعلى منه، والقبعة المصنوعة من القطيفة.. و في الصيف كنا نرتدي فستاناً قطنياً مشجراً باللون الأزرق والأبيض، وقبعة من القش بها شريط أزرق مصنوع من الحرير، للأسف أنها لا تعرف عنهما أكثر من ذلك، فهي التحقت بمدرسة داخلية في انجلترا وإيطاليا ثم درست بعد ذلك في مدينة زيورخ وعندما عادت إلى القاهرة كانت الصلة التي تربطها بالاثنتين قد انقطعت، حيث لم تعد تدري ماذا حدث لهما .. أنا أيضا لم أعرف شيئاً عما حدث لهما، كل ما أتذكره من حكايات جدتي أن جيزلا وهيلينا هي ابنتا رودولف وحفيدتا هاينريش وتأكدت الآن أيضا أن الأثر الوحيد عن جدي الأكبر والذي لم يمحه الزمن في مصر الحالية كان موجوداً في صورة محفوظة في ذهن قديم لامرأة عجوز.

انجلى الغطاء الترابي فوق القاهرة أثناء الليل وحرر سمائها، وشدتني زرقة السماء البديعية في اليوم الأخير قبل سفري حتى أذهب إلى قلعة صلاح الدين وأودع المدينة القابعة أسفلها والأهرامات الغاطسة في الغرب داخل الأفق الرملي الممتد.

مشيت بدون حذاء فوق السجاد الأحمر الممتد داخل قاعة الصلاة الضخمة بمسجد محمد على.. هذا المسجد الذي أحتل

صدارة القلعة، وبينما يمشي المرء عندنا داخل الكنائس والكاتدرائيات منحنيا في أماكن ضيقة متحسسا نفسه أثناء السير. . كنت أشعر هنا في المسجد بانفراجة حامت فوق قلبي، وجلست لمدة طويلة على الأرض عند حافة القاعة مستشعرا لطف الإضاءة بينما لا أشعر بأية مخاوف مستقبلية.

لم أركب تاكسي في طريق العودة، وحل المساء حينما سرت عائدا إلى الفندق، تفحصت الخريطة التي معي وسألت شخصا عن اسم الشارع الذي كنت قد وصلت إليه فأخبرني أنه شارع رمسيس، تأكدت أنني لست بعيدًا عن الفندق وسرت في الشارع نحو اتجاه الجنوب الغربي . .وخطر ببالي الاسم القديم لشارع رمسيس وهو شارع الملكة نازلي الذي كنت قراءته في الأرشيف الحكومي لمدينة بيرن بسويسرا أثناء اطلاعي على تسجيل لقاء الجمعية السويسرية الوحيدة بالقاهرة والذي كان مدونا باللغة الفرنسية وقد ظهر فيه اسم هاينريش بالتحديد في لقاء الجلسة العمومية في ٢٢ يناير من عام ١٩٠٢ وقد أقيمت الجلسة في مقهى بشارع الملكة نازلي، وسجل هذا اللقاء تحت بند "المتنوعات" هذا أيضا ما كان مدونا في سجل اللقاء الذي أقامه السيد ارنست كرامر رئيس الجمعية الخيرية لمساعدة المعدومين والمشردين السويسريين . . أقام

الرئيس هذا اللقاء في حضور سبعة عشر رجلاً من أعضاء الجمعية في ذكرى العضو هاينريش بلوتشيلي المتوفي في يوليو من العام السابق.

ربما نهض أعضاء الجمعية واقفين رثاءً لـ هاينريش، وربما صمتوا لبضعة ثوان، على أيه حال لم يكن ذلدجك مدوناً في سجل اللقاء.